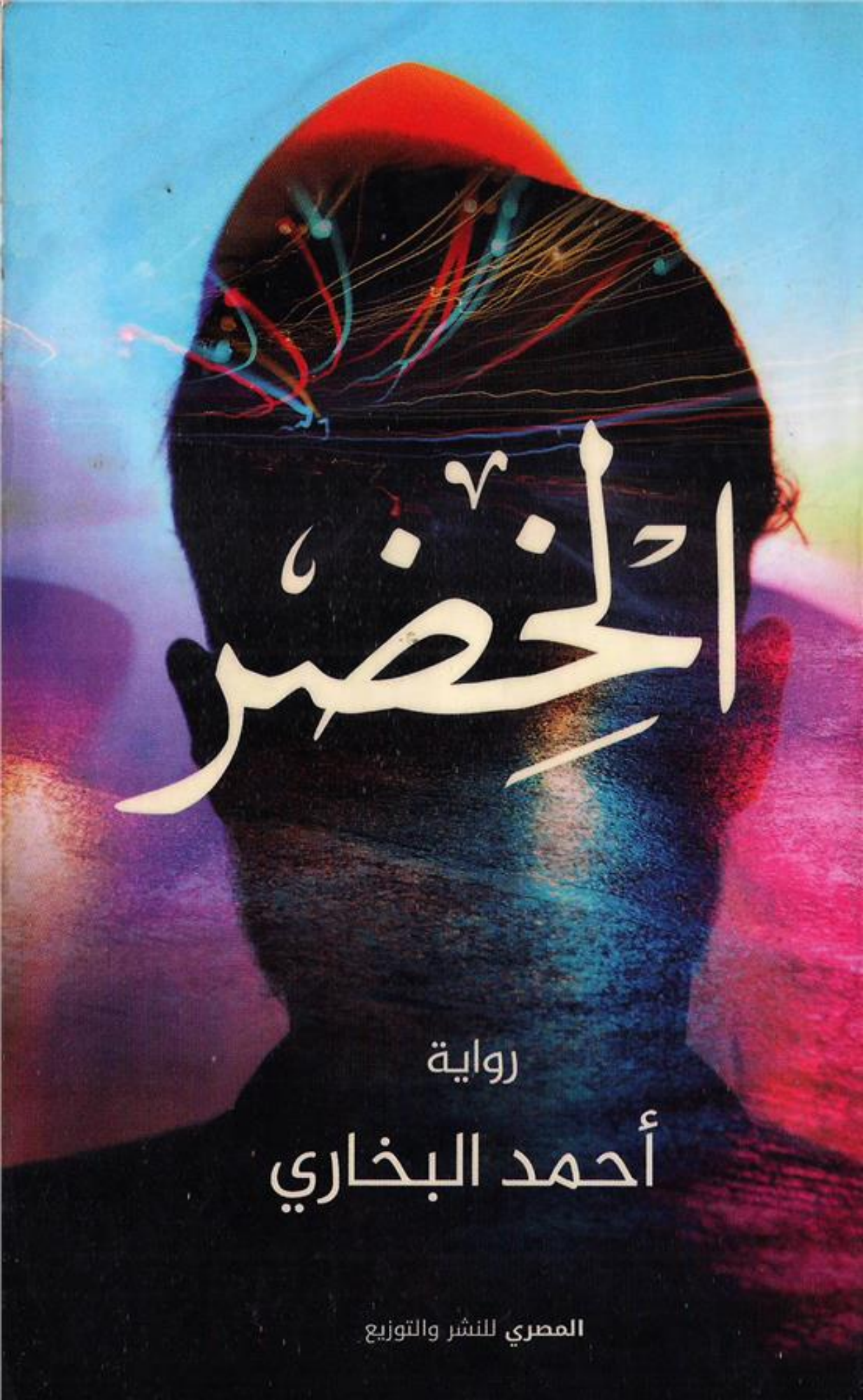
الخضر
رواية
أحمد البخاري
المصري للنشر والتوزيع

الخضر

رواية

أحمد البخاري

«مدخل»

الولايات المتحدة الأمريكية.

مدينة «ترينتون» عاصمة ولاية نيوجيرسي.

1 أغسطس 1939

****

استجابةً لطَرقاته، فتحت السيدة لتراه واقفًا على الباب..

كان يبدو رجلًا في الأربعين من عمره، ذو كتفين عريضتين، ورأس أصلع تمامًا، كان يحمل قبعة يضمُّها إلى صدره، ناظرًا لها نظرة استجداء بعينين خضراوين لامعتين..

نظرت له السيدة في ضيق وقالت:

- أرجوك أيها السيد، إنَّ زوجي قد قابلك أكثر من مرة، وقال لك مرارًا إنه مشغول، فلماذا تصرُّ على إزعاجه..؟!

رد عليها السيد في لهجة أسف شديد وبلكنة أمريكية صحيحة:

ـ أرجوك سيدتي، إني أحتاج جدًا لمكالمة السيد ألبرت،ساعديني أرجوك سيدتي، وأعدك أن تكون هذه هي المرة الأخيرة.

نظرت له السيدة مليًا، قبل أن تتنهد وهي تقول له:«انتظر لحظة»، ثم دخلت إلى داخل المنزل لبرهات، قبل أن تعود لتقول له:

«تفضل»..

بدت السعادة والارتياح على وجهه، وهو يدخل المنزل، متتبعًا السيدة عبر ممرّاته، حتى وصل إلى باب يبدو لمكتب زوجها، نظرت له وهي تقول:

ـ أدخل.. ولا تطيل، وأرجو أن تكون هذه هي المرّة الأخيرة.

نظر الرجل إليها بشكل جدِّي، قال:

ـ أعدك.

حينما دخل المكتب، كان زوجها هناك بالفعل خلف مكتب خشبي من خشب الزان اللامع، منحنيًا برأسه لمجموعة من الأوراق، ومشغولًا بعدد كبير من الحسابات المعقّدة.

دخل ليجلس بهدوء على أحد المقاعد قبل أن يقول بعد فترة:

- سيد ألبرت، أرجوا أن تكون قد فكّرت في ما قلته لك، واقتنعت به!

رفع السيد ألبرت رأسه نحو مضيفه، ونظر له برهة نظرة متأملة، قبل أن يمطّ شفتيه من خلف شاربه الكث ويصيح:

- ألا تفهم أيها الرجل..؟!!، كيف تتوقع منّي أن أصدق هذا الكلام العجيب الذي تقوله، وصف الجميع لي بالجنون لا يعني أن أصدق ما تقوله، قلب نظريات ومفاهيم الكون شيء، والتخريف الذي تقوله شيء آخر..!!

- أرجوك يا مستر «إينشتاين»، ما قلته لك صحيح،

وسيحدث، إن كوارث عظيمة ستحدث لو لم تفعل ما قلته لك.

قاطع «ألبرت إينشتاين» استجداء الرجل المنهار قائلًا:

ـ مستحيل أن أفعل ما قلته لي، هذا ضد مبادئي.

ازداد استجداء الرجل وهو يقول:

ـ على الأقل لا ترسل رسالتك إلى الرئيس «روزفلت»..!!

صاح «إينشتاين» بشكل أكثر حدة هذه المرّة:

ـ أنت لا تفهم طبيعة الموقف، إن الألمان بصدد صناعة واحدة الآن، لا بدّ أن أخلق التوازن في العالم، إن لم أفعل ذلك، فهتلر لن يرحمنا.

صمت الرجل قليلًا مع هدوء انفعالات «ألبرت إينشتاين»، ثم قال بهدوء ملحمي:

ـ لكنني ضحيت بالكثير من أجل هذا التوازن سيد ألبرت..

قالها ونهض من مقعده قائلًا بجدية:

ـ سيد ألبرت، اسمح لي بالمغادرة.

صمت العالم «إينشتاين» قليلًا قبل أن يقول في أسف:

- سامحني سيد «كدر»، لكن ليس باليد حيلة، لا أستطيع أن أوقف ما سيحدث حقًا..!!

رد الرجل مصححًا للعالم:

- اسمي «خضر» سيد ألبرت، اسمي «خضر»، ويؤسفني أنك ستعضُّ أصابعك ندمًا عمَّا ستفعله.

عندها غادر السيد «خضر»، تاركًا بابًا مفتوحًا، لم يلمح أحد من الموجودين داخل البيت، أنه غادر منه.

****

الفصل الأول

تغيير

يرويه: جمال

هذه هي الأرض الميتة..

هذه أرض الصبّار..

هنا، تُرفع الأصنام..

وهنا تُقبل..

صلاة كفّي رجل ميت..

تحت بريق نجم آفل..

تي. س. إليوت – The Hollow Men

في رثاء هذا العالم المشوّه.. الكآبة وحش يختبئ تحت فراشك!!

واضعًا أقدامي على الطريق نحوه، أنظر مليًا للمدينة، فأستشعر الوحشة، أستشعر القبح!، متى ينتهي كلّ هذا؟!، متى ينتهي كل هذا الهراء، انظر نحو هذه المباني القبيحة، نحو هذه الوجوه الباردة المسماة بشرًا، هذه المخلوقات الفاشلة الانتهازية الغبية القذرة، أشمئز، أكاد أتقيأ من هذه المهزلة.

ماذا تريد؟!، لماذا حادثتني بعد كل هذا الانقطاع يا أحمد، ما الذي ذكّرك بي، الكآبة وحش يختبئ تحت فراشك، الكآبة شرنقة تكبر في جوفك يوميًا حتى تخرج منها فراشة بأنياب تنهش قلبك.

ما زلت أحتفظ بمفتاح شقته كل هذه الفترة، أولج المفتاح في الثقب، أحرك إلى اليمين فيفتح الباب على مشهد توقعته، ملابس وقارورات وأكياس طعام في كل مكان، النفاية البشرية والهدية الأبرز من الإنسان لكوكب الأرض، أكمل دخولي إلى غرفته عبر الصالة، فأجد بالإضافة إلى ما سبق أوراقًا متناثرة هنا وهناك، وشخصًا ينظر لشاشة كمبيوتر زائغ العينين، الكآبة وردة تنمو في تربة روحك،وأنت تسقيها باستمرار.

رآني فساد الصمت بيننا، لكنني لم أقاوم رغبتي، فذهبت إليه واحتضنّا بعض.

قلت له وكأننا التقينا أمس:

ـ ما الذي ذكّرك بي، في ماذا أردت محادثتي؟!

قال لي بلهجة ذابلة:

ـ لا شيء مهم حقًا، حدث معي شيء غريب أردت أن أريك إياه، ووجدتها فرصة مناسبة للالتقاء بك مرّة أخرى.

نظرت في عينيه فرأيت اليأس، كل هذه المدة لم تتعافَ أيها الرفيق بعد!! كل هذه المدة وذلك الجرح الغائر ما زال يؤلمك!! كل هذه المدة تحبس نفسك داخل شقتك، لا تلتقي أحدًا ولا يلتقي بك أحد، تفقد إيمانك بكل شيء، الكآبة صديقك الحميمي، الذي ينام بجانبك على السرير.

نفضت من رأسي أفكاري وقلت له مهتمًا:

ـ ما الذي استجد؟!

لم يجِب، فقط أدار لي جهاز الكمبيوتر الذي أمامه، لأجد رسالة مرسلة له على رسائل الفيس بوك، فنظرت لها بإستغراب.

«أهلًا أحمد..

أنا لبنى محمد من الأردن، أسكن في مدينة عمّان، بمنطقة المقابلين، في حي الحسنية، الشارع الرابع بعد الإشارة الضوئية، البناية رقم30، شقة 16، عمري هو 22 عامًا، في سنتي الأخيرة من الجامعة، أبي يقوم بتعذيبي يوميًا، ويضربني بشكل مستمر لأتفه الأسباب، أبي يضطهدني، ويعاملني كحشرة، ودائمًا ما يقوم بتحقيري، ويعلن ندمه على خلفة البنات، ويقول لي دائمًا أنك ستجلبين لي يومًا العار، حياتي تدنو من الانهيار يوميًا، وأنا أفكر جديًا في الانتحار».

فور انتهائي من قراءة الرسالة، قلت له باستغراب:

ـ ما هذا؟!

ـ ليس لدي أي فكرة، حاولت أن أرسل لها أكثر من رسالة أحاول أن أخبرها عن ماذا تريد بالضبط؟ أو دوري في الموضوع، لكن ليست هناك أي استجابة!

الفتاة هنا تُدعى لبنى، الأكاونت باسم رانيا، الأمر غير مفهوم.

قلت له:

ـ ربما هو نوع من رسائل التوعية، أو كتلك الرسائل التي يرسلها موقع آفاز.

قال لي بهدوء:

ـ هذا شيء مفهوم، واعتيادي، رسائل السبام هي Pain in the ass.. ولكن المشكلة ليست هنا

هنا بدأ يفتح لي بريده الإلكتروني، تويتر، انستغرام، سناب شات، تيليغرام، لينكد إن، قودريدز، فايبر، واتس آب، كل حساباته على الإنترنت ثم إنه فتح لي صندوق المسجات في تلفونه، يا للهول.. نفس الرسالة وصلت له في كل هذه الأشياء، ثم إنه مد يده فأخرج ظرف للرسائل البريدية الورقية، وقال لي:

ـ انظر، لقد وجدت نفس الرسالة اليوم وأنا أفتح باب الشقة، مكتوبة بخط اليد.

- ما هذا العبث؟!!

قال وكأنه نجح في إثارة استغرابي:

- شيء غريب ها..

قلت له محاولًا التفكير في أي منطق:

- هل هناك شخص يريد إرسال رسالة لك؟! ولكن ما غرضه من ذلك؟!

قال لي:

- لا أدري حقًا.

قلت له:

- وهل فكرت في أي شيء يمكنك عمله..؟!

قال منتفضًا، وكأنه يحاول إنهاء الحوار:

- لا أستطيع ربط أي صلة لي بهذا، هذا الأمر لا يعنيني أبدًا.

ثم إننا صمتنا، حتى غيّرنا الموضوع، وودعته بشكل عاجل عسى أن نلتقي مرة أخرى.

الكآبة وحش النسيان.

****

في الزيارة الثانية.. وجدته وقد وصلت إليه الرسالة الثانية، وبنفس الطريقة.

فتح ظرف الرسالة الورقية وقرأ لي..

«أنا فاطمة أيوب من مصر، أسكن في حلوان، في حي المعصرة، بالقرب من شارع ترعة الخشاب، عمري هو 35 عامًا، وزوجي يقوم باضطهادي دينيًا، هو يفرض النقاب علي، ويمنعني من الخروج والعمل، لا أخرج إلا للذهاب لمنزل أهله، دائمًا ما يضربني بغية تربيتي، ويقوم بإكراهي على ممارسة الجنس، ورغم أنني أنفذ له كل ما يطلبه منّي، إلا أنه يفكر في الزواج بزوجة ثانية».

ـ ما هذه الرسائل، لم أعد أفهم؟!

كنت قد عاهدت نفسي على زيارته من حين لآخر، بعد كل هذه الفترة من الانقطاع، كان من الواجب عليّ ألا أدعه ينزلق أكثر.

أخذت نفسًا عميقًا، ثم قلت له:

ـ يبدو لي أنها رسائل استغاثة من نساء يمارس ضدّهم نوع من الاختراقات ضد حقوقهم، ويبدو أنهم يرسلون لك بشكل خاص كنوع من طلب الاستغاثة، ربما لكي تفعل شيئًا.

أجابني في غضب:

ـ أفعل لهم ماذا؟!!، ليس يعنيني الأمر.

ـ لكنه كان يعنيك في السابق!

أشرت له لبوستر ممزّق ما زال ملقيا على أرضية غرفته لجون لينون، نظر له في احتقار وهو يقول:

ـ كانت فترة حمقاء في حياتي، كنت مؤمنًا بأشياء خيالية وردية كالحقوق والحريات والمساواة والديمقراطية والسلام.. هذه أكاذيب.

صمت.. قلت له:

ـ والألم.. والمعاناة.. هل هي أكاذيب؟!

قال ضاغطًا على أسنانه، وكأني أقضم قلبه:

ـ لا ليست أكاذيب، ولكنها قدر محتوم، لا فرار من العذابات. لا فرار من ظلم الإنسان لأخيه الإنسان، هذه هي التركيبة المعروفة للحياة البشرية، وهذا ما جُبل عليه هذا المخلوق الكريه.

أجبته:

ـ الحقيقة أوافقك بعض الشيء، ولكن هل نستسلم لهذا المصير، أم نقاوم، ونحاول مرارًا وتكرارًا حتى لو كنّا في قرارة أنفسنا نعلم أننا لن نحقق الكثير، هذا هو السؤال؟!

صمت ولم يجب..

هو يعلم في حقيقة نفسه ماذا كانت إجابة هذا السؤال فيما مضى، المشروع العلمي الذي كنّا نقوده معًا قبل أن ينتهي كل شيء، مدوناته المتعددة والمدافعة سابقًا عن الحرية والمرأة والسلام، قبل أن يحذفها كلّها، فيديوهاته عن اليوتيوب ومحاضراته وكل آرائه التي كان يتابعها الآلاف والتي قام بحذفها، لكن متابعيه قاموا بتنزيلها وإعادة رفعها من جديد.

الكآبة هو أن تكون شخصًا آخر.. ليس أنت.

الحقيقة أن استمرار توارد هذه الرسائل لم يزد حالته إلا سوء، حاول تحاشيها، حاول تجاهلها، لكنها ظلت تأتي وتتوالى، وتصبح أكثر قسوة وقسوة، فكرت في عدم تركه هذه الفترة بمفرده، الكآبة مرض نفسي خطير لا يمكن الاستهانة به أو تجاهله، وهناك من يريد أن يوصله للجنون.

«أنا مروة علي من ليبيا، أسكن في غوط الشعال، بجانب جامع طارق بن زياد، رابع شارع على اليمين، وأبلغ من العمر 18 عامًا، أنا أتعرض للاستغلال الجنسي من قبل عمي، بدأ الأمر حينما اعتدى عمي عليّ عندما كنت في سن صغيرة، وكان يهددني بألا أبوح بالسر، وإلا فإنه سيخطفني ويرميني في الشارع، وهكذا استمر الاستغلال الجنسي حتى حينما كبرت، فأصبحت الأداة الجنسية الخاصة به، يضاجعني أسبوعيًا من فتحة الشرج، كنت أخاف أن أبوح بهذا السر لأي أحد، الفضيحة ستلاحقني ولن يصدقني أحد، أحس أنني تشوهت نفسيًا، وأحيانًا كنت أستمتع بما يقوم به، ولكن عقدة الذنب تقتلني، وأرغب فعليًا في الانتحار، لكن أخاف أن يعذبني الله في النار».

حينما زرته في تلك الليلة، كان يبكي بُحرقة، وكان يصرخ بكل ما أوتي من قوة:

«أيها العالم القذر، أيها العالم القذر، أيها البشر الحقيرون، فلتحترقوا جميعًا.. فلتموتوا جميعًا».

ظل يصرخ هكذا لمدة من الزمن، وهو يرطم رأسه في الحائط حتى

أدماه، كان يتعذب بمعنى الكلمة، وكانت الرسائل تتوالى عليه، منى من مصر، مزيانة من المغرب، شيماء من اليمن، عاتكة من الإمارات، وكانت الرسائل تزداد قسوة وألمًا، لقد فقد السيطرة على عقله تمامًا، فقط كان يحس بثقل وجوده في هذا العالم، أحس كأن العالم بدأ يلفظه، وأنه لا يريد أن ينتمي لهذا المكان.

الكآبة وحش قد يقتلك.

****

لكن الخلاص جاء في موعده..

الخلاص جاء كرسالة أخيرة..

«أهلًا أحمد..

أنا هي رانيا، أنا هي الفتاة التي كانت ترسل لك كل هذه الرسائل، هذه الرسائل التي أردت أن أبين لك فيها مدى الظلم والقسوة والوحشية التي تتعرض لها المرأة كل يوم من اضطهاد واستغلال وظلم، لقد أردت أن أري شيئًا لشخصيتك الجديدة المؤمنة بأن كل هذا هراء، وأنه لا بد أن يحدث في عالم ظالم جاهل متخلف بطبيعته، لكنني أؤكد لك، هذا ليس من المفترض أن يحدث، ليس من المفترض أن يحدث، وأنت تعرف هذا في أعماقك.

آسف لأنني عرضتك لكل هذا الضغط النفسي، ولكني لم أجد طريقة أخرى للصراخ، لم أجد طريقة أخرى للإحساس بي، وإنقاذي مما أنا فيه.

قد تظن الآن في هذه اللحظة أنني قد قمت بخداعك، أو الكذب عليك، لكن صدقني يا أحمد أنا لم أخدعك لحظة واحدة، كل هؤلاء النساء الذين أخبرتك عنهم موجودون، وأنا لم أفعل شيئًا سوى أنني أخذت أماكنهم، تكلّمت بأصواتهم المختنقة، وتحدثت من أجل ضعفهم الذي أراه أمامي كل يوم، حقيقة واحدة خبأتها عنك ولا تعلمها عنّي، وهي أنني واحدة منهم، نعم، أنا رانيا المضطهدة دينيًا، المسحوقة اجتماعيًا، المسجونة من قبل أسرتي، المقهورة من قبل أخي ممثل هذا المجتمع الذكوري المسيطر، أنا هي نقطة التقاء الحقارة البشرية من جهل وتعصب وحيوانية، أنا هو قهر المرأة مجسدًا، فأترجاك أن تحررني..

عزيزي أحمد، إن لحظة التحرر بالنسبة لي قادمة، لقد قررت أن أهرب من المنزل، لقد قررت أن أهرب من هذا السجن إلى الأبد، لقد قررت أن أهرب من التسلط والعنصرية والجهل إلى الأبد، عزيزي أحمد، من في الخارج أشد قسوة، حينما أخرج من هذا البيت، سأجد الذئاب تنتظرني لتنهش لحمي الغض، وليس لدي فرصة إلا أنت لتساعدني.

أرجوك، ليس لدي أمل إلا أنت، أنت كنت مُلهمي، في لحظات الضعف أنت كنت قوتي، أنا كنت من أشد المتابعين لك، ولآرائك، ولمحاضراتك، ثم إنك اختفيت وقيل إنك تراجعت عن جميع آرائك، ولكن بعد ماذا؟ بعد أن آمن بك الآلاف، بعد أن آمنت بحقي في الوجود، فأنا بذرة أنت جعلتها تُزهر، أنا إعصار أنت

خلقته، أنا كنت لا شيء.. وأنت جعلتني أرى إنسانيتي من جديد.

عنواني وموعد رحيلي مرفق مع الرسالة، فأرجوا أن تتخذ موقفًا يغير حياتي للأبد».

حينما أنهى أحمد قراءة الرسالة، كان جسده يرتعش منتفضًا.

سألته في عدم تصديق:

ـ هل ستصدق كلام هذه الفتاة حقًا..!!

رد علي باقتضاب ومرارة في جملة أخيرة:

ـ لستُ أدري..!!

****

طوال الليل كنت أفكر في هذا الحدث، ما الذي يحدث بالضبط؟ هل هذا الشيء حقيقي بالفعل، لكني عرفت أن الأمر وصل إلى مرحلة الجنون حينما رن هاتفي لأجد أحمد يقول لي عبرة:

ـ «سأمر عليك بالسيارة.. لقد قررت بالفعل.. سأذهب إليها»..!!

****

في شارع ضيق ومظلم، وحسب الاتفاق، كنا قد أوقفنا السيارة بحيث تكون متوارية عن الأنظار، كان أحمد يعتصر المقود في قلق واضح، بينما أنا كنت أنظر للساعة وأقول له:

ـ انظر، لقد مرت نصف ساعة على موعد هروبها، ولم يحدث شيء، يبدو أن الأمر كان مجرد خدعة سخيفة.

مط شفتيه بحركة لا معنى لها..كان الليل ساكنًا بطريقة مريبة ومخيفة..وكنا نحن ننتظر في هذا الصمت الذي يعذبنا..فجأة ارتطم جسم بشري بالسيارة محدثًا صوتًا مدويًا من حيث لا ندري.

حينما أفقنا من صدمتنا فقط، نظرنا بهلع إلى وجه فتاة تضرب بأيديها على الزجاج وتصرخ، افتحوا الباب، افتحوا الباب..

بسرعة جنونية فتح أحمد الباب ليجعل الفتاة تدخل إلى السيارة..

الفتاة صرخت:

ـ«انطلق بسرعة..انطلق..لقد اكتشفوا هروبي»..

وبأقصى ما لديه من قوة ومهارة، انطلق أحمد بالسيارة محدثًا صريرًا صاخبًا..

نظرنا في المرآة الخلفية والجانبية..كنّا نرى أشباحًا تتوعد ولكنها سرعان ما اختفت..جرينا بالسيارة وجرينا..وبعد أن تأكدنا أن لا أحد يلاحقنا..توقفنا لنستوعب الموقف..بالفعل إنها فتاة..لقد كانت تقول الحقيقة..سروال جينس، وتيشرت، وجسد لفتاة كما يجب أن يكون..نظرت لأحمد فعرفت من خلال عينيه ما كان يجول بعقله..

لقد استوعب الآن فقط ما قام به..لقد ساعد هذه فتاة على الهرب..وهي الآن ستكون معه.

الفصل الثاني

هرمجدون

يرويه: جمال

(ورأيت من فم التنين ومن فم الوحش ومن فم النبي الكذاب ثلاثة أرواح نجسة شبه ضفادع ۞ فإنهم أرواح شياطين صانعة آيات تخرج على ملوك العالم وكل المسكونة لتجمعهم لقتال ذلك اليوم العظيم يوم الله القادر على كل شيء۞ ها أنا آتي كلص طوبى لمن يسهر ويحفظ ثيابه لئلا يمشي عريانا فيروا عريته۞ فجمعهم الى الموضع الذي يدعى بالعبرانية هرمجدون)

سفر الرؤيا – الإصحاح 16

كنت أجري وألهث من شدة التعب، وفي يدي، كنت أحمل صورتها، كنت متيقنًا أنها الوحيدة التي تملك الحل في داخلها..

باقي على الكارثة ساعات معدودة..

وفي تلك الأثناء، مرّت كل الأحداث كشريط سينمائي أمام عيني، وتذكرت، كيف كانت البداية..

****

كُنت دائمًا أتساءل ما الذي يدفع فتاة كجوزفين للانضمام إلينا، إلى المنظمة أقصد.. فتاة جميلة من عائلة غنية، تقضي معظم أوقاتها في الخارج، فتاة ساذجة لا تعبأ إلا بآخر صيحات الموضة والميكاب، يصبح لها رأي وقضية، قضية مستعدة أن تضحي بحياتها من أجلها.

عندما حكت لنا جوزفين قصتها فهمت، إنه القهر، إنه الظلم الذي تحاول أن تتجاهله، فيزورك في بيتك، ينقض عليك في فراشك، ويجتاح كوابيسك.

«في صراع الوحوش، في صراع القتلة، يصبح تدمير العائلات أمرًا هينا، يصبح التنكيل بأبيك أمام عينيك أمر إعتيادي، يصبح تهديد جميع أسرتك بالقتل أمر متوقع».

المنظمة الآن تلتقط جوزفين، تفتح ذراعيها لها وتحتضنها، وهي في أشد حالات الإنكسار، وتعدها بالحلم الموعود، القضاء على الظلم، القضاء على الفساد، وقلب الموازين، وصنع المعجزة التي عجز عنها الكثيرين.

كلنا هنا لسبب أو لآخر، ليست قصصنا مشابهة لجوزفين، ولكنها تحملنا إلى نفس المصب، رغم ذلك جوزفين تشرب الشاي معي وتضحك، وتخبرني كم أن الرفقة ممتعة في هذا المعسكر الذي نعيشه معًا لمدة 3 أسابيع الآن.

أنا أيضًا سعيد بوجودي مع جوزفين، سعيد بالتقاء خطوط سيرنا في هذه الحياة معًا، وجدت جوزفين فتاة استطاعت أن تأسرني بسهولة، لم يلزمني الكثير من الوقت لأقرر أنني أحبها، ولم يلزمني الكثير من الجهد أيضًا لأفهم أنها بدأت تبادلني نفس المشاعر.

حينما أخبرني عادل بها ظننت أنه يمزح، أعرف عادل منذ أن كنّا أطفالًا، ورغم اختلاف ظروفنا الاجتماعية إلا أن صداقتنا لم تتأثر مطلقًا، عادل القادم من الأحياء الفقيرة بنى نفسه خطوة بخطوة كفيلسوف، دائمًا ما كنت أسأله ونحن نجلس في المقهى المفضل لنا عن سر تفوقه على الجهل والفقر والتخلف، كان يضحك دائمًا من سؤالي، ويردد جملة «إيميل سيوران المشهورة»: «لا نعرف حجم قوتنا الخاصة إلا متى تعرضنا للإهانة».. لقد كان عادل قادمًا من جحيم الإهانة، ولا عجب أنه كان يحلم بجنة المساواة.

هرمجدون.. السيطرة.. هرمجدون.. القيادة.. هرمجدون.. المنظمة التي ستقود الحرب الأخيرة ضد التخلف والفقر والفساد والظلم، هرمجدون.. ستكون موعد قيامتهم.. هرمجدون.. ستكون الفناء ونهاية عالمهم الذي على أنقاضه سنبني فردوسنا الأرضي..

كريم أيضًا أحد أعضاء مجموعتنا الصغيرة، والمسؤول عن دائرة التثقيف، عندما ترى روحه المرحة، لن تصدّق ما تراه بعدها من ندوب مختلفة في جسده، وكأنه محارب صيني في عهد كانجكسي أنهكته الحروب، لكنها ندوب معروفة لكل ضحية من ضحايا التعذيب، وهو أمر متوقع بالنسبة لصحفي مثله، وصاحب مؤسسة عن انتهاكات حقوق الإنسان، لقد حرّك صندوق الرمل المغلق، وخروجه حي من ظروف الاعتقال هو معجزة في حد ذاتها.

لكنهم أيضًا لم يدخروا جهدًا في السعي نحو خروجه كحطام إنسان، كل الأساليب التي تدفع للإحساس بالذل استخدموها، ليس أقساها أساليب كوضع العصي في مؤخرتك، أو صعقك بالكهرباء في أعضاءك التناسلية، أو إرغامك على شرب بولهم وفضلاتهم.

يوزع علينا كريم المسؤول عن دائرة التثقيف، نسخنا من الكتاب المقدس «كلينامن»، وهو يقول لنا:

«يقولون إن آخر الدواء الكي، ولهذا أحيانًا يحتاج المجتمع إلى نسف قيمه وأخلاقياته ومنظومته من القواعد، يحتاج إلى إعصار تسونامي كبير يجرف كل القاذورات التي نبتت خلال عقود وعقود من التعالي والغرور البشري ولهذا خلقت هرمجدون»..

منظمة هرمجدون هي منظمة تجتمع بها النخبة، نخبة منتقاة بكل عناية، نخبة مخلّصة ستحمل على عاتقها بناء هذا العالم الجديد، نخبة ستقود زمام الأمور، ستقود البلد نحو التقدم والازدهار، وتخرجها

من الورطة الحضارية والوحل الغارقين فيه، بعد أن تقود حربًا مقدسة مع المخلفات البشرية التي تعيقنا وتجذبنا للأسفل.

بعد ساعة التثقيف، يجتمع أعضاء المجموعة في باحة الفيلا المخصصة لنا ولمعسكرنا، في الباحة المطلة على فضاء شاسع يحمل نسمات منعشة ومنظرًا ليليا لقمر مضاء، نبدأ في السمر والدردشة، ونبدأ الخصومات المعتادة في نوعية الموسيقى التي نريد سماعها. نضحك أنا وجوزفين عندما نسمع علاء وهو يقول بنبرة جادة:

- أريد أن أسمع لباخ..

- لا أريد أن أسمع لهيفاء وهبي..

يضحك كريم وهو يسمع رد جوزفين.. يرد كريم بسخرية:

- ما زالت آثار البورجوازية بداخلك يا جوزفين..

تقول جنى بهدوء وتحدٍّ:

- «سنسمع لجوليا بطرس»..

تذهب إلى شريط الكاسيت، وتختار جوليا بطرس، ونحن الأربعة ننظر لها مشدوهين..

«على رغم الجو المشحون...

تبعا للظرف المرهون...

مطرح ما عيونك بتكون...

بحلم شوفك يومًا ما!

بكرا بيخلص هالكابوس

وبدل الشمس بتضوي شموس

على أرض الوطن المحروس

رح نتلاقى يومًا ما..»

نرى جنى خامس أفراد مجموعتنا وهي تنفث سيجارتها، منتشية بأغاني جوليا بطرس، جنى كانت آخر المنظمين لنا في عزلتنا هذه، جاءت في يوم قائض وحر لا يحتمل، كنا نجلس في حلقة نقاشية عندما دخلت ببوتها الأسود العالي محدثًا صوتًا فخمًا، نظرنا لها، فوجدنا فتاة ترتدي الملابس السوداء بالكامل، مع حلاقة قصيرة صبيانية وقرط في أنفها على ستايل الجوثيك «القوطيون».

بعد ذلك عرفنا أنها ناشطة شهيرة، وفيمنيست ومشاغبة على صفحات التواصل الاجتماعي على غرار علياء المهدي وغدير أحمد، لها مدونة صادمة حققت لها بعض الشهرة، ثم اصطدمت كالعادة مع رجال الدين والسياسة والنفوذ، وكان العقاب هو اغتصابها أثناء عودتها لبيتها في أحد الأيام لكي يتم تدميرها نفسيًا ومعنويًا، وتكف عن ما تفعله، لكنها لم تكف، وكانت صخرة صماء استطاعت تجاوز محنتها وزيادة العيار إلى الضعف، ويقال إن لولا انضمامها لمشروع «هرمجدون» لكانت الآن جثة هامدة على قارعة الطريق..

في البداية توجّسنا منها، لكننا بعد فترة الجمود الإنساني المعتاد، بدأنا في الاعتياد على وجودها، وعلى شكلها الغريب، وعلى طقوسها

الأغرب، وعلى طباعها الحادة أحيانًا، ووراء كل هذا السواد الذي تغطي نفسها به، وجدنا قلب طفلة بريئة كعادة الفتيات الصداميات لتنميط العالم، ووجدنا نفسنا نراها في إحدى الليالي وهي تضحك كقطة خجولة، وخلف كل هذا التحفز، كانت هناك روح مرحة دافئة.

وهكذا أصبحنا نحن الخمسة كعائلة خلال مدة التدريب، كان في كل مجموعة 5 أفراد، ولكل مجموعة قائد «عادل»، ومسؤول تثقيف «كريم»، كان عدد المجموعات غير معروف، وغير معلوم، ولا يوجد أي اتصال بين مجموعة وأخرى، كانت كل مجموعة تجتمع في مكان يناسب طبيعة مهمتها، لا أحد يعلم دور كل مجموعة ولا طبيعة عملها حتى الآن، تصلنا المعلومات من مسؤول التثقيف، ويتواصل مع قائدها حلقة وصل تصله بحلقة وصل أخرى إلى آخر الشبكة.

حينما سألني «عادل» عن رغبتي في الانضمام، وأنني مرشح مهم ترغب المنظمة في ضمّه، سألته سؤالًا مهمًا:

- من خلف كل هذا..؟!، من هو العقل المخطط الذي يقود كل هذا..

- إنه يعرف باسم «المدبّر»، إنه العقل الذي خطط لكل هذا، الأسطورة، الحكيم، المتمرّد، ولكن له اسم أيضًا طبيعي مثلنا.. يقال إن اسمه «حمزة»..!!

قلت له مستعجبًا:

- جميل كل ما تقوله، ولكن اسمحلي، نحن نتكلم هنا عن تنظيم متماسك، عن مجموعات غير معلومة العدد تجتمع وتخطط وتتعايش، نتحدث عن موارد وتمويل ضخم، نتحدث عن لقاءات وعدد لا بأس به من الشباب المنظم، أين أجهزة الدولة من كل هذا، ألا يوجد من يثرثر أو من يتم اكتشاف أمره؟!

يجيب عادل في ثقة:

- اسمع.. لا يمكنني أن أصرح لك بكل المعلومات التي لدي بالتأكيد، لكن تأكد أن كل ذلك شيء هين أمام قدرات «المدبّر».. ولطمأنتك أقول لك، يقال إن المدبّر من داخل منظومة الدولة نفسها، إن لم نقل إنه دولة مصغرة داخل الدولة، وله أموال ونفوذ تجعله يستطيع التأكد من سلامة وضمان عمل منظمتنا، وإبقاؤها طي الكتمان.

هل هي حركة إصلاحية من داخل النظام؟! أم موجة جديدة ضد حرس قديم أم ماذا؟

لكن من الذي دفعني أنا للانضمام؟!، ما الذي دفعني للمشاركة في هذه المنظمة، وأن أصبح جزءا منها، لست أدري حقيقة!!، لم تدفعني أي مأساة للوصول إلى هذا الطريق، لم تكن لي مظالم خاصة، أو دافع حسّي، أو أي ظروف من أي نوع عكس الآخرين، أبواي لا زالا على قيد الحياة، مستوانا متوسط، حياتنا عادية جدًا ورتيبة في

أغلب الأحيان، لم نصطدم بأي مشاكل أو أحداث من نوع خاص، لكن بعد تفكير جدّي، أقول إن السبب الرئيسي هو اللا جدوى..!!

بعد توقف أبحاثنا، وجدت نفسي في حالة فراغ كاملة، لا أجد شيئًا أفعله، بعد توقف المشروع وتحوّل أحمد الدراماتيكي، بدأت أتساءل حقًا، ما جدوى الحياة..؟!، أو بعبارة مقلوبة، ما الضرر من الموت؟!، في عدم وجود غاية فعلية، غير مشوشة بشكوك عقلية، تعيش من أجلها، وتجعلها محورًا لحياتك؟!، هل نحن نخدع أنفسنا؟!، هل نحن نعيش الوهم فعليًا، هذا الوهم الذي يبرر فعلنا اللا إرادي للتنفس! للشهيق والزفير الذي لا نحيا إلا به والذي لا نستطيع إيقافه، أم أن الفراغ الذي ينهشني هذه اللحظة هو الذي يجعلني أسير هذه الأفكار العبثية التي لا تمت بأي صلة للمصير البشري الذي يجعلنا نعيش الحياة البشرية بكل أحاسيسها وآلامها وجمالها في إطارها الذي لا بديل عنه!

عِش حياتك بجميع تفاصيلها، ولا تضيع وقتك بالتفكير..!!

عثرت على أحمد صدفة وأنا أتصفح الفيسبوك بضجر شديد، صادفني أحد فيديوهاته فنظرت له بنصف عين، تجاهلته في البداية، ثم كأن هناك هاجس غريب أرغمني على العودة لفتحه، ويا للدهشة.. لم أستطع أن أتوقف، شاهدت جميع فيديوهاته.. قرأت كل مقالاته، تابعته على كل وسائل التواصل الاجتماعي.. رهيب.. كنت مشدودًا بأفكاره ورسالته.. وأسلوبه المبسط، كنت مجرد متابع، ولم أتوقع في لحظة ما، أن يتصل بي شخصيًا.

كانت لحظة نورانية ما زلت أتذكرها حتى الآن، فقد طلب مني لقائه، باعتباري أحد أهم الفيزيائيين الذين يمكنهم مساعدته. وعندما تقابلنا لأول مرة، «خيل لي وكأني أرى نور ينبعث منه»، وهو يصافحني، ويعرض علي أن أكون شريكه في معجزة العصر، لم أتردد لحظة بالطبع في الانضمام للمشروع، ثم بعد ذلك، نمت تلك الصداقة بكل تفاصيلها المختلفة وليصبح مشروعنا هو مركز اهتمامي.

هل هذا هو السبب حقًا؟!، البحث عن البديل، ملء الفراغ!!، إيجاد حاضنة فكرية واجتماعية، ومشروع يحتويني بديل عن المشروع المفقود، كل ما أعرفه أنني حينما انضممت وجدت عائلة حقيقية، كريم، جنى، عادل، جوزفين، وجدت حبًا حقيقيا لأول مرة، وفتاة مصنوعة من الحلم الذي طالما صنعته في مخيلتي، وجدت إيمانًا بوضع منجز حقيقي على الأرض، وحلم بحياة خلاصية، ننتهي بها من هذا الخراب والدمار المستمر في الأرض.

وهكذا، قاربت أيام التدريب على الانتهاء، الجميع مشحون بالشجن، والترقب، والحماس، ولكن قبل اكتمال الشهر بثلاثة أيام، حدثت مفاجأة لم أكن أتوقعها، دخل يومها علي «عادل» وأنا متكئ وحيدا على الشرفة، كانت في ملامحه جدية لم أرها قبلًا، ثم أنه فقط قال لي دون مقدمات:

ـ المدبّر طلب مقابلتك..!!

****

كل شيء قيل عنه، كان يبدو في أول لقاء لي صادقًا..!!

في ذلك المكان الذي لا أدري عنه شيئًا، أمام بحر عنيف متلاطم، ومكان أشبه بمقهى خاص لا تصل إليه إلا إضاءة خافتة لقمر يبدو حزينًا، التقيت به، المدبّر، الأسطورة، المعلّم، المتحكّم، الذي رسم كل تفاصيل المنظمة، وصاغ فكرها وأبجادياتها، جلست معه لأول مرّة ورأيته، كانت ملامحه تبدو حزينة ومهمومة، وكأن جرحًا غائرًا فيها، كان هادئًا وحكيمًا كما وصف بالضبط، وكان وجوده معجونًا بالسكون، وكأنه ريشة استقرت على صفحة ماء، لكنّي حينما جلست أمامه شعرت برهبة، رهبة المكان والكيان، وهول الشخصية واللقاء، حتى إنيّ ارتعشت، وكأن نسمة باردة تسربت في نخاع العظم.

دون مقدّمات قال لي:

- أنت تعرف بالتأكيد يا جمال لماذا قمنا بتكوين هذه المنظمة؟!

صوته، الفخم والجهوري أجفلني للحظات، لكنني رددت بكلّ ثقة وتفهم:

- بالطبع أعلم، هذه المنظمة خلقت لتخلص البلد من الحالة المزرية التي تعانيها، من حالة الموات القابعة داخلها، تخلصها من الطغمة الفاسدة، وتحكم الظالمين، جئنا لنفجّر الحلم من رحم الكابوس، أن ننقذ البلد من سرطان لا يمكن انتزاعه، هذه المنظمة خلقت لتقلب الموازين، وتنهي المأساة، وتصنع المعجزة!!

ابتسم لي بحكمة وقال:

ـ نعم، صدقت..

لكنه استطرد ويده تشير بإشارة الحذر:

ـ ولكن.. تذكّر.. نحن نقوم بذلك دون رغبتنا الفعلية، نحن نقوم بذلك مضطّرين، نحن سنحرق هذه السفينة من أجل مصلحة ركّابها، نحن من سنحطم هذه الدولة الفاسدة من أجل بناء دولة أعدل.. دولة أشرف!!

لابدّ من التضحيات يا جمال للأسف، لا بدّ للطوفان أن يأتي ليغرق التوحش القابع فينا من أجل عهد جديد، لا بدّ أن يتحوّل سكان مدينة سدوم الآثمة لألواح من الملح، فعل المهابدة سيكون بشريًا هذه المرّة، من أجل نجاة الرسالة.

صمتُّ في حضرته، لم أستطع ادّعاء أنني أفهم كل ما يقال، لم أقدر على الرد، وصمت هو أيضًا برهة قبل أن يسألني مرّة أخرى:

ـ هل تعرف لماذا اخترتك أنت بالذات يا جمال؟!

ـ بالتأكيد لا..

قال لي بضحكة حنونة:

ـ ربّما قد تعرف لماذا اخترتك، وربّما لا.. لكن صدقني، لم يكن الأمر بإرادتي حقًا، كان شيئًا أقوى منّي.. ربّما تعرفه لاحقًا.. أما الآن، فهذا ليس مهمًا، المهم هو ما سأطلبه منك..

ثم بهدوء شديد، أخرج من جيبه صورة أعطاها لي، كانت الصورة

الفتاة تبتسم بملامح ملائكية، وفي عينيها سكينة خالصة..

قال لي بصوت أقرب للمناجاة:

ـ هذه الفتاة تدعى هدى، هي فتاة يتيمة الأب وضعيفة، وتحتاج لمن يعتني بها، ستجد عنوانها على ظهر الصورة، وستجد مبلغًا ضئيلًا من المال في حسابك البنكي، أرجوا أن تعتني بها بشدة، في حال حدوث أي شيء لي..

انتابني الخوف، لم أعد أفهم شيئًا، ولم أكن أملك إلا قبول طلبه..

ـ هل تعدني؟!

قالها، وكأنه كان على وشك البكاء، لكنني قلت له بدون تردد:

ـ أعدك.

****

الفصل الثالث

ازدواجية

ترويه: أروى

«يا بطة ميحي ميحي.. يا بطة راك أتطيحي»

زمزامات الفونشة..

«يا هووووووووو..»

أصرخ بها من السعادة.. أبتسم، أضحك من النشوة.. أنا حرة.. أنا حرة.. الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، عجلات السيارة تطوي الأرض طيًا، وجانبي الطريق تبدو كأنوار موسم أعياد الميلاد، أنظر بمنتصف عين للمقود، أراه، أرى ضحكته، أرى حلمي الذي بحثت عنه طويلًا حتى وجدته.

«تتذكري لما قلتيلي.. إنك راح تتزوجيني.. بالا فلوس.. وبالا بيت».

قالت مُنى الجالسة في المقعد الخلفي مع مروان:

ـ لا أستطيع التصديق أننا ذاهبون لتسجيل أول أغنية لنا في الأستوديو!!

وأنا كذلك يا مُنى لا أستطيع التصديق، حلمنا الذي حلمنا به منذ زمن، منذ أن تعارفنا أنا وأنت ومروان وحاتم، غناء.. قيتارة.. بيبز.. درامز.. حلم الموسيقى البديلة والأغنية المختلفة، حلم أفكار الشارع، حلم إنهاء سيطرة المجتمع، لينا شاميان، توت أرض «وين الناس كلا اللي بدا سلام»، مجتمع بديل، لايك جيلي، بنات المصاروة، تكسير قوالب، جوان صفدي، بدون قيود، الراس ومونما، فلسفة جديدة، حياة جديدة.

أفتح النافذة، وأرفع الميدل فينقر لهذا المجتمع العفن، لهذا المجتمع المصاب بالانفصام والازدواجية، المجتمع الذي يجلس على مؤخرته كل يوم ليتابع بشغف فنانات وفنانين حفرت المساحيق في وجوههم

أعاديد، لكنهم يرفضون مجموعة من الشباب أن يعبروا عن أنفسهم بحرية، يرتعدون من فكرة أن نعيش كما نريد، حتى ولو على الهامش، حتى الهامش لم يعد متاحًا.

هذا المجتمع العفن، الذي يبتسم في وجهك، عندما تظهرين نفسك وأفكارك، ولكنه يأكلك حية في الخفاء، تصبحين عاهرة مرفوعة الأرجل، فقط لأنك تحلمين، فقط لأنك تحاولين العيش كما تريدين، لا كما يريدون هم، هكذا بكل بساطة، يريدونك أن تتبعي خياراتهم هم لا خياراتك. أن تعيشي وتموتي حسب مسار وطريق محدد، طريق آمن، طريق ضيق جدًا، يقع ضمن المنطقة الخضراء للعادات والتقاليد وما يجوز، ولو حاولت فقط فقط الخروج إلى النهار، لا، عيب.. حرام، لا يجوز، شن يقولوا علينا الناس.

(Fuck the society)

كنّا نجلس بسعادة في الاستوديو مستعدين للبروفة الأولى للأغنية قبل تسجيلها، أنفث دخان سيجارتي، وأراجع الكلمات، بينما كل شخص في الفرقة يمارس طقوسه المختلفة قبل البدء، عندها تلقيت أول رسائله على الهاتف.

«تراجعي عما تفعلينه.. ستندمين».

هكذا بكل بساطة، بعد كل هذا الغياب، بعد كل ما سببه لي من ألم، يعتقد أنني ما زلت متوفرة له، وأنني لم أكتفِ من ألاعيبه بعد، لا أدري إن كنت أستطيع الضحك الآن، أو ربما يمكنني إرسال صورة

لـه، وأنا منحنيـة أتبوّل عـلى ذكرياته.

قذفـت الهاتف بعيـدًا، وذهبت لحاتـم لأطبع قبلة على شـفتيه قبل أن نذهب جميعًا لنسـجّل أغنيتنا الأولى.

****

مـا زلـت أذكر أول مـرة التقيـت فيها حاتم، كنـت أمرّ بحالة نفسـية سـيئة، وقد خرجت لتـوّي من تجربـة أداء أخرى تم رفـضي فيها، كنت عـلى وشـك البـكاء، وكأن دموعـي بإمكانهـا تحطيـم هـذا العـالم المليء بالأسـوار والسـدود، لكني وجدته أمامي جالسًـا وهو ينفث سيجارته متأملًا في السـماء، قـال وعيناه لا تفارق السـماء:

ـ رفضـوك لأنـك غنيـت شـيئا مختلفًا، لأن أفـكارك بالنسـبة لهم غير مألوفـة، لم يتعـوّدوا عليها بعد.

لم أعلـم مـاذا أقول، تجمّـدت الدمعة في عينـي، تجمّد العـالم وأنا أنظر لـه بدهشـة واسـتغراب، قفز من جلسـته ووجّه عينيه نحـوي بإصرار، وقـال ضاحـكًا وهو يمد لي يده للسـلام:

ـ شريـكك في النبذ الاجتماعـي لعباقرة إبداع القرن القـادم، أهلًا بك في النادي.

بعـد ذلـك صرنـا أصدقـاء، ثـم بدأنـا نخـرج مـع بعـض ونتحدث طـول الوقـت، لم أكـن أعلـم أن هنـاك مـن هـم مثلي في هـذا العـالم، يشـاركونني نفـس الاهتمامات والطموحـات والأحلام، بدأت أنسـى جرحـي القديم، وكوابيسي السـابقة، وأصبحت ألج عـالم حاتم الخيالي

رويدًا رويدًا، وبدأت علاقتنا تتطوّر بكل سلاسة.

صدقًا حاولت أن أكبح جماح مشاعري، وألا أتورّط بسرعة في قصة جديدة بعد كل ما سبق، ولكني وجدت شخصًا متفهمًا وعصريًا وناضجًا، شخصًا مجنونًا يشاركني جنوني ويتقبلني كما أنا.

«لقد بدأت تبتعدين.. صدقيني.. سيحلّ عليك غضب الله».

هاني.. ما الذي تريده مني يا هاني.. فلتمت أيها المعتوه.

****

علمت أنه خرج من السجن عندما كنت أتصفح الإنترنت في أحد الأيام، كان هناك تقرير إخباري يتحدث عن ظاهرة «الشيخ أبو قتادة»، وكيف أنه أصبح محبوبًا لدى قطاعات كبيرة من الناس، وبدت له حظوة وسطوة لدى طبقات مختلفة من المجتمع، تمعنت في الصورة جيدًا، ولم أصدّق عيناي أنه هو نفسه هاني، دققت في الصور أكثر، اللحية الغريبة والرجال من حوله، وكل هذا الهيلمان، إذن فقد خرجت من السجن يا هاني، خرجت دون أن أسمع شيئًا عنك.

كنت أنا وحاتم في هذه اللحظة بصدد تكوين فرقتنا الجديدة، تعرفنا مؤخرًا أيضًا على مُنى، عازفة القيتار اللطيفة ومروان عازف البيز الموهوب، كان كبل ظريف أحببناه، كنا أنا وحاتم أيضًا قد اتخذنا خطوات متقدمة في علاقتنا واتفقنا على مستقبل نعيش أحلامنا فيه كما نريد، ولم أجد مانعًا في أن نمارس معًا الحب عدة مرات، فقد أصبحت حياتنا مرتبطة معًا.

«سيحل عليك غضب الله.. سيحل عليك غضب الله».

بدأت هذه الرسائل تصلني باستمرار، في البداية تجاهلتها ثم بدأت بالفعل تزعجني، ما الذي تريده مني يا هاني، لقد أخرجتك من حياتي للأبد، رسائله المتواصلة جعلت قلبي ينقبض، وقد أحسست كأن هناك مصيبة قادمة ستحل بي، رغم أنني كنت أعيش أجمل فترات حياتي، الحلم، الحب، السعادة، وحتى أن أغنية فرقتنا الأولى بدأت تذاع في الراديوهات المحلية، وتكتسب بعض الشعبية، وبدأت القنوات تستضيفنا، وبدأ العالم يهتم، وأصبحنا نستيقظ كل صباح، رغم سهرنا المتواصل، لأن في هذا العالم ما يستحق الحياة.

****

ظل حاتم أسبوعًا كاملًا مختفيًا قبل أن يتصل بي طالبًا مقابلتي.

طوال ذلك الأسبوع كدتُ أجن، بعد اختفائه بيومين اتصلت بمروان، أين حاتم يا مروان؟!، ولكنه كان يحدثني وفي صوته حرج، لا أدري يا أروى، صدقًا لا أدري؟!، أنا أيضًا لا يرد على مكالماتي، وذهبت إليه في البيت، ولكنهم يقولون إنه قد سافر إلى مكان ما لم يخبرهم به، في اليوم الخامس كنت أبحث عنه كالمجنونة في الشوارع، في المستشفيات، وعند جميع أصدقائه، الكل أجمع على عدم رؤيته أو مقابلته، أو ربما كانوا يكذبون عليّ لا أدري، ألف مكالمة، ألف رسالة، ألف مسيد كول قبل أن يغلق هاتفه، وأفقد الإتصال به، ثم بعد أسبوع كامل، وجدت رقمه يهاتفني.

قبل أن أنهار باكية عند سماع صوته، أخبرني بكل هدوء وبلا أي مقدمات:

- أروى.. أرجوك.. بدون انفعال.. أريد رؤيتك وسأشرح لك كل شيء.

****

في المقهى الذي تقابلنا فيه أول مرة تقابلنا، قال لي بكل مباشرة:

- أروى.. أريد أن أقول لك بكل صراحة، لم يتم اختطافي ولم أتعرض لأي مكروه، وكل أصدقائي كانوا يعلمون مكاني، والحقيقة هي أنني كنت أتهرب من مواجهتك، لكنني قد قررت مصارحتك بكل شيء.

ما هذه السخافة، ماذا يحدث هنا.

تابع وهو يراني عاجزة عن الكلام من هول ما يقوله:

- أنت طبعًا تعلمين أنني لست شخصًا ميسور الحال مثلك، أنا شخص قضيت معظم حياتي وأنا أتحاشى وضع يدي في جيبي لأكتشف أنني لا أملك فلسًا، ورغم ذلك، أتبعت حلمي ولم أيأس وبعت ممتلكاتي، وأنفقت كل ما أملك لكي نكوّن الفرقة، وننتج أول أغنية لنا، الكل ساهم بالطبع، ولكن إلى متى؟!

نعم.. أغنيتنا حققت نجاحًا متوسطًا، وقامت بعض الإذاعات بوضعها، ولكن ماذا بعد، هذا العالم يتعامل معنا كمادة للاستهلاك، وخبر مسلّي في فقراته فقط لا غير، وأصدقك القول، حاولت

الاتصال بالعديد من المنتجين، ولكن لا أحد يريد الإنتاج لنا، أوالمخاطرة والمغامرة بإنتاجنا.

تنهد تنهيدة حارة قبل أن يتابع:

ـ الحقيقة أنا فكرت مليًا في وضعنا، ووجدت أننا نضيع وقتنا سدى، ويبدو أنني في صدد حل الفرقة، وليذهب كل شخص في طريقه، ثم أنني بصراحة أكثر، لاحت لي فرصة للسفر في الخارج، ويبدو أنني سأسافر.

تكلمت معه للمرة الأولى، وقد بدأت أستوعب إلى أين يأخذنا الحديث، لكنني أردت أن أتأكد:

ـ أوك، كل هذا مفهوم، وربما أتقبله، وربما أقنعك، وكان من المفروض أن يقال بحضور كل أفراد الفرقة، ولكن ما علاقة هذا بنا، وبعلاقتنا، وبمستقبلنا معًا..؟!

طأطأ رأسه أكثر، ثم إنه نظر لي بكل صراحة ووقاحة قائلًا:

ـ هذا ما أردت قوله منذ اللحظة الأولى، أروى.. نحن غير مناسبين لبعض، أنت من عالم وأنا من عالم، عائلتي لن تسمح لي بالارتباط بك، إنت متحررة أكثر من اللازم، حياة الفن شيء، وتكوين عائلة شيء آخر.

«أنت رائعة حينما تكونين رحلة عابرة لا تلتصقين بنا، حينما تكونين مجرد صورة معي على الأنستغرام أو الفيسبوك أو تويتر، أنت رائعة فقط حينما لا تحملين اسمي أو لقبي أو تكونين معي في كتيب العائلة».

أنت فخر لي، أتباهى بجسمك الجميل ومفاتنك البارزة أمام أصدقائي.

المجتمع المتعفن مسيطر أكثر مما تتوقعين، تقاليد المجتمع لم تنسَ لك المبدل فينقر، المجتمع المتماسك يرده لك.

****

ما تلا ذلك كان بصقة قذفتها بكل كراهية قبل أن أتركه، كنت أرتجف من الصدمة، من الغضب، من الألم، ما تلا ذلك، أن الجميع من حولي أصبح يبتعد، مُنى لم تعد ترد على مكالماتي أيضًا، ومروان حادثني مرة أو مرتين ثم بدأ يعتذر إلى أن اختفى هو أيضًا، لم أعد أسمع أي أخبار عن حاتم أو ماذا حدث للفرقة، وكما توقع هو، بثت القنوات الأغنية لفترة محدودة، ثم تناستها كأن شيئًا لم يكن، تناسانا العالم، وكأننا لم نحلم ولم ننتج ولم نحيا، فقدت الثقة في كل من حولي، فقدت الثقة في الأحلام، والحريات، والثورات، وأفكار التغيير، هذا العالم الذي حلمت به ليس له وجود.

«تراجعي عما تفعلينه.. ستندمين».

نعم.. يا هاني.. لقد كنت محقًا.. لقد ندمت.. لقد إنتصر عالمك على عالمي، عالمك هو الحقيقة، هو الواقع، هو الحق، أما عالمي أنا محض خيال، محض زيف، محض أوهام.

بعد وصولي لحافة الموت.. جاء أول اتصال.

كان هاني:

ـ ألم أخبرك.

ـ بلى.. أخبرتني.

ـ كنت ذاهبة في طريق الضلال، وقلت لك، إنك ستدفعين ثمن هذا الحرام في دنيتك قبل آخرتك، فلم تسمعينني، أعرف أنني تخليت عندك في السابق، ولكن لم يكن بإرادتي حقًا، وأنا مستعد الآن لإصلاح خطئي.

أنا ما زلت أحبك يا أروى.. ما زلت أريدك.

قلت له في إنكسار:

ـ لقد قسوت علي جدًا يا هاني.

قال بصوت محب:

ـ دعيني أقابلك وأشرح لك، سأشرح لك كل شيء، وستفهمين، ستفهمين ما مررت به، وعندها صدقيني، حياتك ستتغير للأفضل.

****

عند هاني وجدت الراحة والطمأنينة، كانت رحلة شاقة وصعبة، لم أفهم في البداية، لكني عندما فهمت وصلت، إنضممت، لرحاب الدعوة الصادقة، والطريق القويم.

يقول الشيخ أبي قتادة شارحًا معالم دعوته الجديدة: «الصحبة الطيبة هي الحل، اجتماعنا مع بعض، وتكوين مجتمعاتنا المتوازنة نفسيًا

وروحيًا، يحمينا من هذا المجتمع الفاسد، من نمط الحياة القاسي والمدمّر للروح والجسد».

عادت علاقتي بهاني من جديد، وبدأت أتدرج في تعاليم منهج «أبي قتادة»، رويدًا رويدًا، حتى أصبحت قائدة لإحدى مجموعات الفتيات الملتزمات في الجماعة، كان الشيخ شخصيًا يوجهني يوميًا، وكنت بفضله ألتزم كل يوم أكثر من اليوم الذي سبقه، حتى رسخ الإيمان في قلبي، ونلت كامل الطمأنينة والرضا.

أحيانًا أتذكر حياتي وأحلامي السابقة، وأقول لنفسي ما الذي كنت أفعله، أي تفاهة كنت أقوم بها، أحيانًا أظل ليلة كاملة أبكي على الله يغفر لي ذنوبي والكبائر التي قمت بها، مع الفجر، أحس وكأن روحي غُسلت، وكأنني نلت السكينة.

في ذلك اليوم إلتقيت بأخت هاني للانضمام لمجموعتنا، قال لي الشيخ أبي قتادة بعد محادثة شخصية بالهاتف، أرجوك أعتني بها يا أروى، إنها أختي، أي شرف يا شيخ، أي شرف يا شيخ، أن تكون أختك في مجموعتي.

أخت الشيخ معنا في المجموعة، كانت جميع الفتيات تعاملها برهبة شديدة، يا لها من محظوظة، لابد أنها كانت تملك العلم الغزير، والأدب الوفير، ورغم أن كل ما قيل عنها صحيح، إلا أنها لم تكن أثر كثيرًا كما توقعت، كانت تتحدث بشكل قليل وخافت، ولكنها عاملتني كما يجب، وأبتسمت لي كثيرًا، وأخبرتني أن الله راض عنك

وسيوفقك في حياتك بإذن الله.

يا لها من فتاة رائعة، إنها فخر لنا، كانت دائمًا ما تزرع الطمأنينة في قلوبنا.

إلى أن سمعت عنها ذلك الخبر العجيب الغريب.

حتى أنني لم أصدق ما قيل في البداية.

(لقد هربت أخت هاني) !!

لقد فرّت من المنزل..

أخت هاني.. العلامة.. الذي هدى آلاف المريدين نحو الطريق القويم..

كسرت عصى الطاعة!!

****

الفصل الرابع

الملكوت

يرويه: حمزة

«كم هزئت من أولئك الضعفاء الذين يعتبرون أنفسهم صالحين لمجرد أن لا مخالب لهم».

- فريدريك نيتشه -

«طُوبَى لِلْوُدَعَاءِ لأَنَّهُمْ يَرِثُونَ الأَرْضَ»

إنجيل متى – الإصحاح الخامس

الشمس لا تغيب في سماء الملكوت، الملكوت في صباح دائم، في طقس دائم للمجد، في الملكوت ينعدم الوقت، وتصبح الأزمنة في يد خالقها، يقدّمها متى يشاء، ويؤخرها متى يشاء..

أفتح عيناي، لأجدني عاريًا، وبجانبي عاريتان هما متعة يوم أمس، وأخريات على الأرائك متكئات، أستيقظ محاولًا النهوض من الفراش، فيهتزُّ شيئي معي أبيضًا طريًا، تحاول إحدى الحور أن تمسكه بيدها لكي تجذبه إليها بخفّة، لكنّي أدفعها مكتفيًا فتسقط من على الفراش مستسلمة، لأجد إحدى الجميلات المسؤولات عن ملبسي في انتظاري، تلبسني الروب على عري، فأضرب مؤخرتها السميكة فترتج، فتصنع لي ابتسامة رضى.

في جنة الملكوت، يبدأ الخدم والجنود المجنّدة منذ الصباح الباكر في الدوران كخلايا النحل، هم لا ينامون ولا يتعبون ولا يتوقفون، فهم في خدمة مستمرة لمالك الملك، لربّ هذا الملكوت وابنه، يلبّون طلباتهم وينفذون مشيئتهم ويمضون على صراطهم، ويسبحون بحمدهم ليلًا ونهارًا..

أخرج من القصر، لأبدأ تجوالي في الجنة التي لا نهاية لامتدادها، حدائق وثمار وأنعام، لا حصر لها ولا عدد، خارجة عن الوصف والتبيان، لم تخطر على باب إنس ولا جان، أصل في تجوالي إلى منظر بديع، فأختار إحدى الشرفات لأتناول فطوري من الحليب والعسل والعنب والفالوذج.

في ذلك اليوم، أسقط أحد خدّام هذا الملكوت أحد الأواني الكريستالية فحطّمها في حضرة الأب، غضب الأب كثيرًا وطرده من رحمته، رغم أن خطيئته لم تكن ذلك الشيء العظيم، هكذا هو الأب قاسٍ وغاضب دائمًا، ورغم ذلك، فالجميع هنا يحبّه ويحترمه ويهابه، لأنه ولي نعمتهم، ومصائرهم محددة بما يحدده هو لهم.

«سيارتك جاهزة سيدي»..

أكمل إفطاري لأخرج من ملكوت أبي، لأدخل في ملكوته، كل ما حولي هو ملك أبي، الحجر والشجر والطرقات والمباني، وحتى البشر، السماء والبحار والمحلات والتجار، أركب سيارتي وأنطلق مع جنودي وحرسي وهيلماني، لا مكان لأقصده، لا زمن لديّ لأضيعه، ساعيًا في الأرض لأثبت فقط فلسفتي التي ظلت حقيقة مجرّدة، قوتي وحقيقة القوة!

****

تبدو الأمور مختلطة لدى العالمين بشكل كبير، تبدو الأمور مبهمة، وغير واضحة.

معظم البشر لديهم تلك الفكرة البلهاء، الحمقاء، غير الطبيعية، تلك الفكرة عن تقسيم الحياة إلى أخيار وأشرار، طيبين وسيئين.

الحقيقة تبدو شاخصة أمامهم على مر التاريخ..

لكنهم لا يريدون إلا تصديق الترهات..

فئة قليلة هي من واجهت الحقيقة وفهمتها منذ البداية.

(القوي والضعيف).

لا شكل آخر للحياة، لا تنوع، لا تفرقة، لا خير، لا شر..

الشر مبرر ومباح، ما دمت في موقع القوة..

الحق جريمة لأنها عند الضعفاء..

إنها النظرية الكونية، النظرية العالمية، النظرية الوحيدة التي تحرك هذا العالم.

على مستوى الأفراد، أو على مستوى الدول والجماعات..

حكومات مستبدة تسقط، فتأتي حكومات أشد استبدادًا..

ثورات تحدث، فتنقلب الآية رأسًا على عقب..

مظلومي الأمس، يصبحون ظالمي اليوم..

الفرد المطحون، المقهور، مظلوم الأمس، أصبح الآن طاغية..

أصبح عنجهيًا، نافذ الصبر، متململًا على نفسه، ولا يطيق أن يعترض على رأيه أحد..

هل تعلمون لماذا؟

لأنه أصبح في موضع قوة!!

هكذا هم البشر، هذه هي طينتهم القميئة، هذه هي تركيبتهم النفسية الساذجة والمقروءة إلى حد الاستغراب..

إن الإنسان الذي لا يملك من القوة شيئا، هو إنسان خيّر، ولكن ليس باختياره، هو أُرغم على أن يكون خيرًا، لكن ما أن يمتلك القوة حتى تلاحظ تلك التغيرات النفسية في شخصيته وتصرفاته.

كيف يتحول.. كيف يتحول هذا الكائن..

إذن هي عملية توازن قوة مستمر، لعبة نفسية مستمرة، وتبديل أدوار بين من يمتلك هذه القوة، ومن لا يمتلكها.

لكن هذه المنظومة مغلفة بقصة طريفة ومضحكة في نفس الوقت.

قصة تتحدث عن الخير والشر، عن العقاب والحساب..

لابدّ أن كل هذه التجمعات البشرية الضعيفة، قد اجتمعت في يومًا ما، وقالت:

لننسج قصة تخفف من آلامنا، وتبرر عجزنا لدى زوجاتنا وأطفالنا.

لننتقم من هؤلاء الجبابرة بطريقتنا الخاصة.

وبأقل التكاليف..

لندّعي أن هناك إله أقوى منهم سينتقم منهم في ما فعلوه بنا..

لنرسم عالمًا أخرويًا يعاقبون فيه، بينما ننجو نحن..

عالمًا يخسرون كل ما أتى إليهم بالقوة، ونأخذه نحن نتيجة استكانتنا.

ولهذا خلقت فكرة (الله).

القوي لا يحتاج الله.

القوي ينفذ مشيئته بيديه.. بقوته.. بأمواله..

وإن فشل، يحاول مرة أخرى وأخرى إلى أن ينجح..

القوي لا يحتاج أحدًا ينوب عليه في أخذ حقه، أو عقاب من أساء إليه، القوي يأخذ حقه بيديه، ويعاقب من يشاء، ويغفر لمن يشاء.

****

بدأت القصة عندما رأيت في إحدى شركاتي تلك الفتاة، كنت في زيارة روتينية نادرة لإحدى الشركات بعد إلحاح من أبي مطالبًا بمراقبة ما يحدث من أمور، قلت لأبي أن ما يحدث أصبح يحدث بشكل روتيني، ولا داعي للنزول إلى العمل كل مرة، ولكنه قال لي إن قيامنا بأخذ الملاحظات أحيانًا مفيد حتى لا تفلت الأمور من نصابها. رأيتها من بعيد، من خلال الزجاج، وسط مئات العاملات في مصنعنا، كان لها جسد آلة أغريقية نحتها مايكل أنجيلو للتو، لم أتردد لحظة في وضع فكرة مضاجعة هذا الجسد في مخيلتي، وكدت أهمُّ بالإشارة إلى رجالي لجلبها، ولكن عيناها أوحيا لي بفكرة شيطانية.

حياتي عبارة عن دوامة لا متناهية من المتعة..

«رقص.. رقص.. رقص»

داخل رأسي، ترى الراقصات ذوات النهود الكبيرة التي تكاد تلامس وجهك وهي ترقص لك، ترى الفتيات ذوات التنانير الضيقة الجالسة بين فخذيك، ترى كؤوس الشراب المثلجة وهي تهرع لك في صف واحد طويل، وتسمع الموسيقى وهي تضرب بدوم صوتي منتظم كدقات قلبك على الدوام.. دم تس دم تس دم تس..

نهر دائري هائج لا يكف عن الدوران، نهر يقذفك ويتلاعب بك ولا يهدأ أبدًا، نهر يلف كل البلدان، وكل الملاهي، والديسكوات والنوادي الليلية، يدخل بك تحت الفلل ذوات الأضواء الخافتة، ويعتلي بك سفوح منحنيات اللذة، ويفرغ ما في جوفك حتى تعاود الكرّة من جديد.

لكنني قد بدأت أمل هذا الروتين، فما الضير من لعب لعبة لكسر هذا الملل في عالمي.

****

كان اسمها هدى وهي عاملة مجتهدة، وابنة أحد العاملين هنا في المصنع منذ زمن طويل.

طلبت من رجالي نقلها من قسم الميكنة إلى قسم المحفوظات، وهو قسم مسؤول عن تسلم الأوراق والبريد وأرشفته وحفظه في مكان معزول في الطابق الأرضي من المصنع، وأمرت المسؤول عن القسم ألا يضع معها في هذا المكتب أحدًا، وأنني سأرسل شخصًا من طرفي لمساعدها في أعمال الحفظ بدءا من تسلمها العمل.

أما أنا، فقد قمت بحلاقة شعري بشكل كامل، تغيير لون عيناي، وصبغ لحيتي بلون مختلف، وقمت بتجربة ملابس قديمة قمت بجلبها بشكل خاص.

نظرت لنفسي مليًا في المرآة وابتسمت.

أنا الآن جاهز لأن أكون (عمر)، الموظف الجديد وزميل هدى في المكتب.

****

طبق نظريتي التي كونتها، لا توجد فتاة غير قابلة للاختراق، كل إنسان قابل للفساد مهما ادعى المثالية أو العفة أو الخيرية، لكل فتاة نقطة ضعف، لا توجد فتاة قديسة، هي فقط لم تجد الفرصة المناسبة أو لم يعرض عليها الثمن التي تريده أو هي فقط غير مطلوبة لذا تدّعي العفة.

الفكرة هي أنني دوماً ما كنت في موضع قوة، كنت أستطيع جلب أو شراء أي فتاة أريد بدون أي مجهود، التحدي الآن ماذا لو كنت في موضع ضعف، ما هي مهاراتي الحقيقية لو كنت مجردًا من قوتي ومن الملكوت، تحدي مثير ولعبة فريدة ألعبها لأول مرة، كم أنا مثار.

جلست للمرة الأولى في المكتب، وتلاقت نظراتنا.

ـ أهلًا.

- أهلًا بك.

كان الجو باردًا، ومستغربًا، شعور أجربه لأول مرة، ولم أعتاده، الجلوس ساكنًا في مكان صامت وهادئ وممل لهذه الدرجة، لكني كنت بشكل ما متحمس، بل أكاد أجن من الحماس.

مرّ اليوم الأول ولم نتحدث.. مرّ اليوم الثاني ولم نتحدث.. مرّ اليوم الثالث وما زلنا نذهب كل يوم ونعمل في صمت.

سر النجاح في اصطياد أي فريسة هو الصبر، الصبر هو النقطة الأهم في الظفر بما تريد، وأنا لم أعتد الصبر، لكن علي الآن أن أجربه، أن أتلذذ به، أن أجرب لذة مراقبة الفريسة وهي تقترب من الفخ، من الهاوية، من الجسد، من الفراش.

في اليوم الرابع كسرت هي حلقة الصمت.

- أنت جديد هنا.

- أيه.. موظف جديد.. إسمي عمر.

- أهلين عمر، فرصة سعيدة.

قالتها ثمّ تأففت: تعرف يا عمر، المكان هنا ممل، أحببت قسم المكنة أكثر، على الأقل أنت تعمل مع الآلة باستمرار، أنت ندّ لها، وتشعر أنك تفهمها وتفهمك، هنا حقًا أشعر أنني آلة لأول مرة، عمل روتيني قاتل، ما رأيك أنت يا عمر؟!

صمتُّ، لم أعرف بماذا أرد، حاولت الرد فتلعثمت:

ـ آه.. أيه.. معك حق.

تنهدت للحظة، ثم إنها قالت وقد ابتسمت لي لأول مرة:

ـ هل تعلم.. لا مناص من أن نصبح أصدقاء يا عمر.. لعلنا نجزي الوقت وتتغير أجواء الملل، لنحكي لبعض عن كل شيء يا عمر، لعلنا نجد بعض السلوى في الحكي.

****

لكنّي كنت أعتبر ذهابي للعمل والإلتقاء بها مجرّد دور ألعبه لأصل لهدفي، كنت أمثّل أنني أستمتع لثرثرتها وقصصها، كانت شخصية أجسّدها أتخلص منها فور خروجي وعودتي لعالمي الحقيقي، ولقواعده الصارمة، قواعد القوة والمتعة والسطوة، في أحد سهراتي، ضبطت نفسي وأنا أتخيل نفسي أمارس الحب مع هدى بينما كنت أضاجع فتاة أخرى، للحظة توقفت، ثم كأن غضبًا حل بي فطردت الفتاة ثم ضربت الحائط بقبضتي قائلًا لنفسي: لا يجب التورّط في هذه الشخصية التي ألعبها، لا يمكن أخذ الأمور بجدية، لا يمكن أن أنسى هدفي الأساسي، لا يمكن أن أنزلق لفخ التعلّق، إنه مصيدة، إنه وهم.

لكن يوم بعد يوم، أصبحت أقترب من هدى أكثر وأكثر، توطدت علاقتنا، وأصبحنا أصدقاء، كنت كل يوم أنهض صباحًا متحمسًا للذهاب للعمل لكي ألتقي بها، وأستمع لحكاياتها التي تحكيها، وتفاصيل حياتها التافهة لكن الجميلة والممتعة في نفس الوقت، وفجأة،

لم تعد هدى بالنسبة لي مجرّد جسد أرغب به، بل أصبحت أيضًا روحًا وكيانًا وفكرة، وأصبحت رغبتي الأولى عنها، تتغير وتختلف.

لكن هل فات الأوان، هل إبتلعني الوهم، لست أدري، كل ما أعرفه الآن أنني بدأت أستمتع برؤيتها، بالالتقاء بها، بصحبتها، وبدأت أشعر أنها أيضًا بدأت تتعلق بي، ولكن ليس بي، بدأت تتعلق بعمر، أنا لست عمر، أنا حمزة، صاحب هذا الملكوت والآمر النهاي فيه، ترى ما الذي سيكون شعورها لو أفصحت لها عن هويتي الحقيقية؟!

في ذلك اليوم سألتها:

- هدى.. هل تؤمنين بوجود شيء اسمه الخير..؟!

- كيف يعني؟!

قالت مستغربة.

- أقصد هل هناك قيمة حقيقية تدعى الخير، أو الأفعال الخيرة، أو أنها مجرّد أوهام إبتدعها العقل؟!، شيء نسبي يختلف بإختلاف الزمان والظرف.

أحسست أنها تفاجأت قليلًا، ثم إنها فكرت في كلامي للحظات قبل أن تقول:

- يمكن أن تقول أنه الاثنين معًا..!!

- الاثنان معًا.. كيف ذلك..؟!

ابتسمت وهي تقول:

ـ نعم أوافقك أنه أمر نسبي في بعض الحالات، أحيانًا يتوهم الناس أنهم يقومون بفعل خيّر في حين أنه فعل مضر، وقد يجلبون العذابات للناس من هذه الأفعال التي يعتقدون أنها خيرية، لكني أؤمن أيضًا أننا نحمل قيمة ثابتة ومشتركة للإنسانية كلها تدعى الخير، الخير في إعادة الحق لأصحابه، الخير في تخفيف آلام المرضى، والخير في رعاية طفل محتاج، ألا ترى في هذا خيرًا، هل جربت يومًا أن تحس بالسعادة لفعل هذا، هل جربت يومًا فكرة الانضمام لمؤسسة تقوم بهذه الأشياء، أنا جرّبت.

صمتت، يا لهذه الفتاة المسكينة، ماذا لو سمعت عن رأيي في الموضوع، عن فلسفة القوة، هل يمكن أن تحبني يومًا ما، هي ما زالت غارقة في أوهامها، غارقة في أوهام الطبقات المعدومة، وحق الفقراء والمساكين، وصراع الطبقات.

شعرت كأني خذلتها قليلًا بكلامي، شعرت بمسحة حزن داخلها، وكأنها تذكرت شيئاً، وكأنها تذكرت مأساتها الخاصة، هدى أيتها الملاك، أرجوك لا تحزني، أرجوك لا تبكي، أحرق كل هذا العالم من أجلك، أدمّره، حاولت أن أعوضها فقلت لها.

ـ ما رأيك أن أدعوك لتناول الغذاء اليوم في مطعم محترم.

كانت المرة الأولى التي أدعوها فيها للخروج، ابتهجت فجأة، وقالت لي ممازحة:

ـ ماذا تريد يا عمر، هل تحاول التقرب مني؟!، أرجوا ألا تطلبني

للزواج غدًا؟!

تظاهرت بالابتسام وسكتت، لكن قلبي كان يرقص فرحًا، وفي مساء نفس هذا اليوم، أرسلت لي رسالة على هاتفي تقول فيها.. «لم أشعر بهذه السعادة في قلبي من مدة.. شكرًا لك».

****

في ذلك الصباح تلقيت مكالمة أشعلتني غضبًا.

كنت ألبس ملابسي المعتادة للذهاب للعمل، عندما حدثني أحد رجالي على هاتفي الخاص قائلًا لي:

- «أرجوا أن تأتي بسرعة يا سيدي.. هناك تمرّد كبير في أحد مصانع الوالد، العمال هناك ثائرون بشدة، ويقولون أن لديهم مطالب، لم نستطع السيطرة عليهم».

حمقى.. مجرد حمقى.. لا يحيط بي سوى الحمقى.

«لابدّ من الإنتباه دائمًا يا حمزة، لابدّ دائمًا من المراقبة بشكل مستمر، لا بدّ من السيطرة حتى لا تنفلت الأمور».

اللعنة. قمت بتغيير ملابسي بسرعة، وركبت سيارتي الفارهة، وتوجهت بسرعة للمصنع، عازمًا أن أنهي الأمور.

****

عندما وصلت إلى هناك، كانت الأمور بالفعل خارجة عن السيطرة، وقد أخبرني أحد الرجال هناك أن العمال كادوا أن يسيطروا على المصنع،

مدّعين أن لديهم مطالب، وأن حقوقهم مهضومة، وأنهم يريدون تحسين أوضاعهم، أي عبث هذا، أي فوضى هذه التي يدبّرون لها.

«من يقود هذه الفوضى؟!»

أجابني أحد المسؤولين هناك:

ـ«إنه شخص يدعى بشير، يقول إنه عامل قديم هنا، وأنه لا يريد شيئًا سوى العدالة».

أجبته في غضب:

ـ اجلبه لي في مكتبي، وقل له أنني أريده لأستمع إليه.

الآن يمكنني أن أريكم كيف تدار الأمور هنا، الآن على الجميع أن يتعلم فلفستي بشكل عملي، وكيف يمكن إحكام السيطرة، وإنهاء الفوضى بأسهل الطرق وأقصرها.

سأثبت لك جدارتي يا أبي.

دخل قائد التمرّد لوحده مع كوكبة من رجالي الأشداء إلى المكتب، كان رجلًا كبيرًا ذا لحية بيضاء يبدو عليه الهزال، لم أتوقع ذلك، ظننت أنني سأجد شابًا أرعن، وليس رجل خرف كهذا، لكن هذا لم يمنعني بالطبع عن ما نويت عمله.

دون مقدّمات، خلعت الجاكيت، ثم ثنيت أكمام قميصي قبل أن أوجه لكمة مباشرة بكل قوتي للرجل صارخًا فيه:

ـ تريدون حقوقكم ها..

تهاوى الرجل من قوة اللكمة، فأمرت رجالي بإيقافه، لكنه باعد أيديهم بصمت، ووقف لوحده، وحدق بي بعينيه متحديًا..

- تتحداني أيها الوغد.

(لكمة أخرى)

- أنتم لستم سوى عبيد لدينا.

لكمة ثالثة.. لكمة رابعة.. كنت أفرغ كل غضبي وتوتري واستيائي فيه، كان تحديه لي كل مرة، يستفزني أكثر، كان صمته وإصراره يشعلانني بالغضب..

لكمة خامسة.. سادسة

كنت أرى يداي تتغيران للون الأحمر كل مرة، لم أتوقف عن لكمه، لم أتوقف عن لكمه والصراخ، حقير.. تافه.. نكرة.

لم أفق من غضبي، إلا عندما لم يعد يحرك ساكنًا، لقد أصبح جثة هامدة.

تأففت لما فعلته.

وأمرت رجالي بحمله وإلقاءه في أقرب مكب نفايات.

لكني توقفت لبرهة.. وسألت بتوجّس أحد الرجال قائلًا:

- ماذا قلت لي إسمه..؟!

- إسمه بشير سيدي.. بشير الريّس..

وهنا أكتشفت الفاجعة..!!

بشير الريّس.. هدى الريّس.. إنه والد هدى!!

الفصل الخامس

تخلي

يرويه: أحمد

«الحقيقة أن شذى صنعت ثورة فكرية في عالمي».

تعرفت عليها في تويتر، فجأة وجدت إحدى الأكاونتات الجديدة قد ضغط زر متابعتي، ألقيت نظرة سريعة على الأكاونت، فشدني ما رأيت، خليط عجيب من الفن والفلسفة والعري والتاريخ والعلوم، نظرت للاسم، قرأته لأول مرة، ومن تلك اللحظة، قررت متابعتها.

منذ تلك اللحظة، تلك الفتاة العبقرية لم تترك شيئًا في داخلي لم تحركه من مكانه، انقلاب في داخلي وكياناتي المتعددة، إرتشفت معها الجنون، ملأتني بتساؤلات التاريخ، والفلسفة، والزمن، والكون، وبداية الحياة.

بدأت معها رحلة المعرفة..

قرأنا التفاسير والأبعاد الغير تقليدية للتاريخ من هشام جعيط وسيد قمني ويوسف زيدان، إستمتعنا بقراءة مفهوم الأخ الأكبر والإستبداد من جورج أرويل، حروب الكنيسة مع التنويريين في روايات دان براون، استشففنا صدق الصادق النيهوم، وإنبهرنا بعالم أحمد مستجير المستقبلية، قرأنا فلسفة مراد وهبة، وفكر فرج فودة، ونقد جمال البنا، وصندوق حامد عبد الصمد، تعمقنا في أفكار جون سيتوارت ميل وبرنارد راسل، وسافرنا في الكون مع كارل ساجان، قرأنا لمحمد المفتي، ومصطفى حجازي وأحمد عصيد، وأندهشنا لبراعة عالم الاجتماع علي الوردي في تشريح التاريخ، ناقشنا كولن واتسون، والهادي العلوي وجون ميلتون طويلًا، وتبحرنا في كتابات

إبراهيم البليهي والقصيمي وداريون شايغان ونوال السعداوي، وعاصرنا إتحاد العمال مع كارل ماركوس، وشهدنا نهاية التاريخ مع فرانسيس فوكوياما !!

مع بعض شاهدنا كل خطب عدنان إبراهيم، وأستمعنا لمحاضرات أحمد قابنجي الصادمة، وضحكنا كثيرًا من فيديوهات «ملحد مصري»، تابعنا بأعصاب وثائقيات الشجاع مايكل مور، تابعنا بمتعة قناة أحمد سعد زايد على اليوتيوب، وشغلنا أدمغتنا كثيرًا بوثائقيات ريتشارد داوكنز، وكريستوفر هيتشنز، وسام هاريس، أما قلوبنا فقد فتحناها بوسعها مع فيديوهات المتصوفة، وأصحاب الطرق المختلفة، كموجي وسادجورو وأوشو، صدمنا بيل ماهر بفيلمه «Religulous»، ودهشنا من جرأة شباب سلسلة «البط الأسود»، وشاهدنا معًا سلسلة «الكون» بجزأها الأول لكارل ساجان، وجزئها الثاني لنيل تايسون.

ما زلت أذكر كيف كانت تأتي بكتب ستيفن هوكينج عن أصل الكون، والإنفجار الكبير، وكنت أنا آتي بكتب فولتير «رسالة في التسامح» ورسائل جون لوك، ونقرأهما معًا، كانت هي مهتمة جدًا، وجد متحمسة لكتاب ستيفن هوكينج ، وكيف يقول فيه أن الكون خلق بدون إله، وكانت متأثرة جدًا بتشارلز داوكنز وكتابه «وهم الإله»، وتقرأ لي فصولًا كثيرًا منه محاولة إقناعي بفكرتها عن عدم وجود إله، في ذلك الوقت لم أكن مهتمًا كثيرًا بهذا الموضوع بقدر اهتمامي بفكرة التسامح الإنساني، والسلام العالمي عبر فكرة العقد

الاجتماعي التي أتى بها جان جاك روسو، وفكرة الدولة المدنية التي أتى بها جون لوك، كنت أقول أن الأديان لا تشكل خطرًا ما دامت لا تشكل دوجما «Dogma» إقصائية، وما دمنا سنصل إلى فكرة «الحرية الفكرية والعقائدية» التي هي الأس لعملية السلام، بينما هي كانت تميل أن «الله هو خدعة تاريخية»، وأن الأديان هي عائق حقيقي للتقدم.

لكني كنت أرفض هذا الرأي منها، لا أدري صراحة لماذا؟، ربما بدافع بعض الإيمان المتبقي داخلي، ربما بدافع الخوف، لا يمكنني فعلًا أن أتخيل هذا الكون بدون إله، بدون أب يرعاه، هل يعقل أن يكون هذا الكون يتيمًا، مثلي..

****

«يا ولد الهجالة.. ما تلعبش معانا..

يا ولد الهجالة.. ما تلعبش معانا»..

****

ما زلت أذكر وأنا طفل صغير يبكي، وأولاد الحي «يعزروا» فيه، يا ولد الهجالة، لم أفهم في البداية معنى الكلمة !، كنت أبكي وأقول لهم، (لعبوني معاكم.. لعبوني معاكم).. لكنهم يدفعونني بخشونة، فأقع أرضًا ويزداد بكائي..

وسط بكائي وبثيابي المتسخة، كنت أعود لأمي، ماما.. ما معنى كلمة «هجّالة»..؟!، كانت أمي تنظر لي بنظرة إنكسار، ثم تقول لي

أمي المخطيء، (قتلك معاش تلعب معاهم أولاد الشارع أهما.. عليك في الحوش)، ثم تبدّل لي ثيابي المتسخة لتغسلها، وتعدّ لي كوبًا من الحليب الساخن، تنيّمني تلك الليلة في حضنها..

لكنّي كنت دائمًا أعاود الكرّة، وأخرج من جديد لمواصلة اللعب، وكانت أمي لا تمنعني وتسمح لي، وهي تودعني بإبتسامة حلوة، متمنية لي أن أقضي أوقاتًا حلوة.. (رد بالك على روحك.. ما توسخش حوايجك)، فانطلق مندفعًا للعب من جديد..

آه يا أمي، كم أنا مدين لهذه الإنسانة التي ضحّت بكل شيء، ووهبت حياتها كاملة من أجل أن أصبح رجلًا كما أنا عليه الآن.

كم تحملت من أجلي، كم صمتت، وهي تشاهدني أثور، وأكسر الأثاث، وأصرخ عليها:

- أين أبي... أين أبي بالله عليك..؟؟!!

هل يمكن أن يكون هذا الكون بدون أب..!!

كانت قد حكت لي مرارًا عن ذلك الشخص الذي خدعها، فتزوجها موهمًا إياها بالحب، قبل أن يتركها بعد أشهر معدودة، وهي حامل فيّ، دون أي معين ولا رفيق، حكت لي مرارًا، كيف أنه كان رجلًا يملك نفوذ في الدولة، فلم يستطع أحد أن يأخذ حقها منه، وكيف أنها كانت بلا حول ولا قوة، تتلقى الصفعات والركلات في أيامها الأخيرة قبل أن يتركها، ويتخلى عنها..

التخلي..

ذلك الشعور الأقسى في تاريخ الإنسان، ذلك الشعور الذي ما أنفك يهاجمني في كوابيسي، واضعًا بيني وبين السكينة وحشًا من الخوف ينهشني باستمرار، مخافة أن يكون التخلي هو قانون أزلي للبشرية، لا مناص منه !!

****

أرسلت لي شذى رسالة مبهمة طالبة فيها أن نلتقي.

حين ألتقينا، قالت لي بدون مقدّمات:

ـ يجب أن نترجم كل ما تعلمناه لمشروع..!!

نظرت لها مليًا، كانت عيناها الجميلتان تتألقان لأول مرة بهذا الفيض من الحماس، كان صدرها المكوّر يعلو ويهبط من فرط الهواء الذي يغذي إثارتها، تساءلت في نفسي، ما الذي تفكرين فيه أيتها القديسة؟!، لكنها واصلت الكلام..

ـ لا يمكننا أن نظل مكتوفي الأيدي، أقصد أننا وصلنا لمرحلة لابد أن نعبر بها عن أفكارنا من خلال مشروع ما، نظريات الفيزياء الكمية، وعلم معرفة الكون، لابد أن يختلط بقراءاتنا الفكرية والتنويرية التي ستمنحنا السلام والتحرر، لابد من مشروع يخرجنا من هذا الزمن الرديء، الزمن المسخ، لنقفز به لزمن الحقيقة المجرّدة..

عندما سمعت هذا الكلام، لم أكن أعلم أنها بدايات تكوين فكرة مشروع «السفر عبر الزمن»، في البداية تناقشنا كثيرًا وكثيرًا، ولأيام

طويلة، ثم تبلور المشروع رويدًا رويدًا، وفهمنا لماذا نحن في حاجة إليه..

كانت الفكرة تتبلور حول نظرية إينشتاين النسبية، حيث أن الزمان والمكان مرتبطان معًا ولا يمكن أن يوجد أحدهما بمعزل عن الآخر، فمثلما يمكن أن نتحرك عبر المكان، يمكننا أيضًا أن نتحرك عبر الزمان، فالزمن نسبي وليس ثابت كما صاغها في قانونه الشهير، وهو الفرق في سرعة الأجسام نسبة لسرعة الضوء، ولو وصلت سرعتنا وأصبحت تساوي سرعة الضوء فإن الزمن سيتوقف.

قلت لها في ذلك الوقت:

- كل هذا مفهوم، وأعلم أن العالم كارل ساجان تحدث عن أن السفر بسرعة تقترب من سرعة الضوء أمرًا ممكن فيزيائيا وتكنولوجيا. وقد استطاع العلماء بالفعل تسريع جسيمات أولية مثل الإلكترون والبروتون إلى سرعات تقترب من سرعة الضوء ولاحظوا زيادة في كتلتها، وأن تلك الزيادة تتفق تماما مع معادلات إينشتاين، ولكن ما هي الوسيلة التي تقترحينها، هل سنعتمد على الثقوب السوداء التي تتخذ نظرية «أفق الحدث» كما تصورها جون ميتشيل، أم طريقة الأوتار الكونية كما قدمها فرانك تبلر، أم سننظر مجددًا في مسألة تحليق الثقب الدودي كما تخيلها كيب ثورن..؟

قالت لي يومها بكل ثقة:

- تبدو عملية تخليق قوة جاذبة لعمل إنحناء للزمكان هو الأقرب

في نظري، ولكن كيف يمكن خلق هذه القوة، وما هي المعادلات اللازمة لذلك، هذا هو السؤال..!؟ فقط دعنا نبدأ.. نعم.. كما سمعت.. أنا أدعوك لكي تكون شريكي في القفز عبر الزمن..

وبدأنا العمل بالفعل، وبعد أن أصبحت لدينا المعلومات والأجهزة والأبحاث والمعرفة اللازمة للإنطلاق في مشروعنا، قالت لي «شذى»:

ـ نحتاج لشخص ثالث ليساعدنا في هذا المشروع الكبير، وأنا أعرف شخص سيفيدنا كثيرًا..

ـ ومن هو هذا الشخص؟!

قلت لها مستغربًا.

ـ أحد أذكى الفيزيائيين الشباب.. أعتقد أنه سيفيدنا كثيرًا.. إسمه جمال.

وهكذا بدأ ثلاثتنا العمل على المشروع، وكنا متحمسين لإنجاز شيء سيقلب موازين الكون، ويغير تاريخ البشرية، وفي تلك الأوقات، كانت مشاعري نحو شذى لا تحتمل الإنتظار، فأخبرتها أنني سأطلب يدها للزواج.

****

كانت إجابة أب شذى بعد أن طلب وقتًا للتقصي والتفكير..

«مستحيل».

لن أزوج ابنتي لابن مطلّقة..!، وهذا قرار نهائي..

أما أنا ببساطة، فقد جننت..

قالت لي شذى الخبر، وهي تبكي على الهاتف، وتقول لي، آسفة.. لن أستطيع التحدث معك مرة أخرى..

- ماذا؟؟، أتمزحين..!!، أحلامنا.. مشاريعنا.. حبنا.. وعودنا.. لا لي؟..

- لن أستطيع التخلي عن أهلي..

- ولكنك تتخلين عني أنا.. تتخلين عنّي..!!

ما الذي يحدث؟!، لم أعد أفهم، شذى الفتاة المثقفة المقاومة لقيم المجتمع البطرياكي البالي تسقط في أول مواجهة؟!! شذى التي طالما حدثتني عن كانط وديكارت وسيمون دي بوفوار وجورج أرويل وسارتر لا تريد أن تتخلى عن أهلها؟!، أين الحديث عن حرية المرأة، أين الحديث عن التمرد واللاسلطوية؟!، أين الحديث عن المشاريع المعرفية؟!، وماذا سيحدث لمشروع الزمن؟!، إن كنّا لا نستطيع أن نتحدى عقبات هذا الزمن؟!

لكنها فعلت، وبقسوة شديدة، ولم تحدثني مرة أخرى..

«ما الذي تعرفه عن الحب أخبرني؟!، ما الذي تعرفه عن قلوب الفتيات..؟!، ما الذي تعرفه عن أحلام فتاة تحلم بفستان زفاف، وعرس يحملها فيه فارس أحلامها إلى حيث لا أحد سواهم»..

لقد تخلت عنّي..

لكنني حاولت ألا أستسلم للمرة الأخيرة، ذهبت لأبيها في مقر عمله، يا عمِّي أسمعني بس، لكنه طردني بهدوء، قال لي بالحرف الواحد:

ـ لا تحلم بأن ترتبط بنا أبدًا.. وضعنا لا يسمح..

ألا لعنة الله على كل الآباء في هذا العالم..

ألا لعنة الله على كل شيء جميل مخادع في هذا العالم..

ما هذا العالم القذر الذي دهسني بلا رحمة..

هذا العالم القذر الذي ركل أمي في الماضي، والآن يركلني..

عن أي حقوق نتكلم، عن أي قيم، وأنا أرى أمي تنظر لي نظرة حزينة، وكأنها هي السبب في عذابي..

وهكذا.. أخذ مني الأمر مدة طويلة لأحاول أن أستوعب ما الذي جرى..

وفي الأيام التي تليها، سيطرت على تفكيري فكرة واحدة..

«هذا الكون صممه شيطان»..!!

يومها ذهبت إلى المنزل، وجمعت كل الأبحاث التي قمنا بها من أجل المشروع، وكل الكتب التي كنا نقرأها معًا، فولتير.. روسو.. إينشتاين.. دي بوفوار.. نظرت لهم مليًا.. نظرت لهم بكلّ حسرة وغضب.. ثم ألقيت بهم في النار!

الفصل السادس

الحارة

يرويه: هاني

«احذر وأنت تحارب الوحوش أن تصبح واحد منهم»

نيتشه

«بووووووووووم»..

انفجار آخر داخل رأسي، أسقط على الأريكة مبللًا بالعرق، بالكاد أفتح عيناي، أنظر بصعوبة، أيها العالم الفاني، كم أتمنى زوالك، متى تأتي نهايتك، بوم بوم بوم، صوت انفجارات متتالية داخل رأسي، لا أستطيع التفكير إلا في الموت، الموت للجميع دون استثناء، الموت لأن الموت هو الحقيقة الوحيدة في هذا العالم البائس، أحاول النهوض متثاقلًا.. أراها أمامي جاهزة.. نفس واحد.. قبلة واحدة.. وينتهي كل هذا العذاب.. أعود بالذاكرة.. وأتذكر البداية..

الحارة.. الموطن الأصلي لمطحوني هذا البلد..

جالسًا على أول الزقاق أتأمل حركة الحارة.. نافثًا دخان سيجارة الحشيش التي أدخنها، لا أشرب عادة إلا السجائر، ولكن ما دمت في الحارة، فهذه المتع مسموح بها دون أي قلق، للحارة قوانين خاصة بها، للحارة نظام يختلف، ما يسري هنا لا يسري هناك، وما يسري هناك ليس بالضرورة معمول به هنا، الحارة عالم صاخب ومختلف، في هذا المكان تجتمع الأضداد، وتختلط المفاهيم، ما الشر؟، ما الحق؟، لا شيء واضح داخل هذه المنظومة البائسة المتهاوية في التراجيديا الغير مأسوف عليها..

هنا يعيش شباب البلاد الحقيقيين، هنا التجسيد الحقيقي لما يريد المواطن والشاب في هذه البلد، لستُ جاهلًا، أنا إنسان متعلم وفاهم مثلما يقال، وأعتبر مقارنة بغيري هنا في القمة، لهذا أحاول أن أفسر

ك، أحاول أن أفهمك، هنا يملكون همومًا مختلفة عن التي تفكر
ها طول الوقت، أنت تنهض صباحًا، تغسل أسنانك، ثم تلقي
ظرة على تويتر من خلال هاتفك السامسونج جلاكسي، وربما
تكتب تويترة أو إثنتان تعبر فيها عن إنتمائك الأيدولوجي او تسب
أيدولوجية أو إثنتان، هنا في الحارة تسقط كل الأيدولوجيات، تصبح
هنا أيدولوجية واحدة، «العيش بنظافة»، أريد أن أسكن وأتزوج
وأحصل على مرتب لكي أعيش عيشة نظيفة، أرجوك، لا تحدثه عن
أي شيء آخر، لأنك لو حدثته عن أيدولوجيتك المملة أو أي شيء
آخر، لجلب مثلث الاحتياجات لماسلو و«قعمزك عليه» أجلسك
عليه، لو كان يعرف ما هو ماسلو أصلًا..!!

لكن للحارة ثقوب على هذا العالم، ولو كانت الحارة معزولة ما
امتصت كل هذه السموم، وما وجدت هذه القطبيات، في الحارة أيضًا
لنا معاركنا، وأقطابنا، ومتطرفينا، ومن هنا ظهر لدينا «أبو الفيحاء»،
وظهر لدينا «الغول».

للشباب هنا متع ينفثون بها عن صدورهم..!!، لا يمكنك أن
تلوم شاب يحمل صخرة سيزيف على ظهره، وتجبره على ألا يأخذ
«جبدة» من سيجارة يخفف بها من همومه، في البداية كانت المتع
خفيفة، ومحدودة، كأس من هنا، سيجارة محشوة من هناك، لا ضرر
ولا ضرار، صفقة تبدو عادلة مع هذا العالم القبيح، لكن ظهور
«الغول» قلب هذه الحياة السعيدة إلى مأساة، جعل الأحداث تأخذ
منحنى دراماتيكي آخر، في أول الأمر لم يعرف أحد كيف ظهر، ولا

من أين جاء هذا الشخص، فجأة ظهر من العدم، كأنه خلق لنا خلقًا، في لحظة ما بدأت الناس تتناقل إسمه الذي يبدو أنه ليس إسمه، «الغول» تاجر مخدرات كبير، ورئيس عصابة يحرك صبيانه في كل مكان في الحارة، غرّق الحارة بكافة أنواع المخدرات والحشيش والبودرة، والتجار الصغار الذين كانوا محبوبين وأصدقاء الشباب عندما كانوا يأتون لهم بجرعات وكميات محدودة، أصبحوا اليوم تحت إمرته، ومكروهين من شعب الحارة المسالم.

من الخارج، كانت الحكومة لا تعير لنا أي اهتمام، ومن الداخل كنا نتآكل ببطء، ماضين في الغيبوبة أكثر وأكثر، ومنسيين في زمن أصبحنا فيه لا نمثل بالنسبة لهم أي قيمة.

في نفس التوقيت تقريبًا، ظهرت علينا مجموعة جديدة بقيادة رجل إسمه «أبو فيحاء»، وهو ما يبدو اسم رمزي أيضًا، في البداية كانوا عبارة عن مجموعة من الرجال الملتحين يأتون ليصلوا في جامع الحارة، في البداية كانوا هادئين ولا يفتعلون أي ضجة، وقد أستقبلهم أهل الحارة بهدوء شديد، لكن رويدًا رويدًا، مع ترددهم الدائم على المسجد، بدأوا يأخذون حضوة ما، وبدأ بعضهم يؤم الصلاة بأهل الحارة، وشيئًا فشيئًا بدأ بعض الشباب ورجال الحارة ينظمون لهم، وأصبحوا مجموعة منتمية بعد فترة وجيزة؛ صدقًا لم أرتح لهم منذ البداية، قلت إن المواجهة قادمة، وفكرة الإستقطاب هذه لا تروق لي، لكن بعض أعمال البلطجة من رجال «الغول» عجل بكشف النوايا، وفي أحد الأيام المفترجة، صعد «أبو فيحاء» على المنبر، ليعلن الحرب

ل «الغـول» وعصابته..

مـا مرّ عـلى الحارة بعدها لا يمكـن وصفه، في البداية هلّـل أهل الحارة لهذا القـرار الشـجاع، وتحمس البعـض وظلـوا يهتفـون: أبو الفيحاء.. رسـول ربّ السـماء.. ثـم بـدأت الحـرب، وبـدأ رجـال «أبـو فيحـاء» ينتشرون في أرجـاء الحـارة، بأسـلحة لا أعـرف مـن أيـن أتـت لهـم، يضربـون بيد من حديد كل صبيـان «الغول»، وتضمنـت هذه الهجمات هجمات إنتقامية بالغة القسـوة، من حـرق بيوت، وتعذيب أشـخاص وقتلهـم والتشـنيع بجثتهـم، وقـد راح ضحية هـذه الأحـداث بعض الأبريـاء نتيجة بعض الإنتقامات الشـخصية من بعض المتطوعين الجدد لأبـو الفيحـاء، لكن «أبـو الفيحاء» في أكثـر من قول لـه، كان يبرئ ذمته مـن هـذه الأفعال، ووافقه بعـض الناس معتبرينها ضريبة لإنقـاذ الحارة مـن الهاوية، ولمدة أسـبوع أو أسـبوعين، بدا أن «الغـول» قد تلقى ضربة قاسـية فعـلًا، وعمّ الهدوء الحـارة، وأرتاحت من المواجهات، وأسـتبشر الناس خيرًا.

لكن الحارة بعدها بأيام علمتنا درسًـا قاسـيًا جدًا، وهـو أن إنتصارك، لا يعنـي أنـك الحـق، لكنـه يعنـي أنـك كنـت في فـترة مـا أقـوى فقط، لأنـه بعـد أيـام من إنتصـار جماعة «أبـو فيحاء» إنقلبـت الموازيـن، وعاد «الغـول» وعصابتـه بعـد أن تسـلحوا بقـوة أكـبر، ويـدأت جماعـة «أبو فيحـاء» تتهـاوى أمـام ضربـات عصابـة «الغـول»، وقتل بعض شـبابه وجماعتـه، الذين هم شـباب الحـارة في الأصـل !، وعاد «الغـول» لفعل مـا يريـد، ومثل ما يشـاء، ومـا كان من «أبـو الفيحـاء»، إلا أن أعلن عن

حالة الطوارئ في الحارة.

عُيّن «أبو الفيحاء» حاكمًا غير رسمي للحارة بمباركة الأهالي بعد أن خافوا من بطش «الغول»، وبطش «أبو الفيحاء» نفسه، إنتشر رجاله بدعوى حفظ الأمن، وأصبحوا يشددون الرقابة على كل شيء، يسألونك من أين أتيت، وماذا فعلت، يتدخلون في كل كبيرة وصغيرة، يمنعون النساء من الخروج، لكنهم في ذات الوقت لم يستطيعوا منع تدفق المزيد من المخدرات التي إزدادت عن ذي قبل! وبسبب حالات البطش والتشديد على مواطني الحارة، دون أمل، ودون كرامة، أصبح الشباب يتدفقون جماعات للانضمام لعصابات «الغول» للإنتقام من «أبو الفيحاء»، ومثلهم كانت جماعات أخرى تنظم لأبي الفيحاء، كانت حالة الإستقطاب كبيرة جدًا، وأصبح الصراع والتفجيرات والقتل على أشدها، كان لأبو الفيحاء نهار الحارة، وكان للغول ليلها، وفي مباراة شوط بشوط، توالت أحداث الحارة.

في خضم كل هذا، لم أكن أنا ألقي بالًا لأي من هذه الأحداث، ولم آخذ وأتحمس لطرف ضد الآخر، كنت مستاء من هذا الوضع الذي وصلنا إليه، لكنّي في ذات الوقت كنت غارقًا في قصة حب أنستني جُلّ ما يحصل.

رأيتها لأول مرة وأنا أدخن سيجارة جالسًا على أحد المقاعد الموجودة في وسط المدينة، أروى.. الفتاة الرقيقة التي تبتسم بخجل فتشعرك بأن العالم ينعم بالسلام، ظللت لأيام متواصلة أجلس

في نفس المقعد أنتظر ذهابها وإيابها من منزلها الذي يقع في إحدى شوارع وسط البلاد العتيقة إلى باص الجامعة، وقد ظللت أيامًا طوال أفكر في طريقة لمحادثتها دون أن أكرر أخطائي السابقة في مهاكسة الفتيات، فإضاعتهن في النهاية، وبعد تفكير طويل توصلت إلى فكرة الرسالة، كتبت لها رسالة، وبكل هدوء قلت لها: «عفوًا يا آنسة.. هذا ظرف ضروري لك».

ونجحت الفكرة بشكل لم أتخيله، ودارت العجلة، إلى أن أصبحنا نلتقي أحيانًا في ذلك المقهى الغالي في وسط المدينة، أو نجلس لدقائق معدودة في الحديقة نتبادل الكلام الجميل الذي أدخرناه لأسبوع كامل، كان كل شيء مع أروى ومع العالم يمضي جميلًا، إلى أن حدثت الحادثة..

موت صديقي مصطفى..

منذ الإبتدائية ونحن لم نفترق، كان صديقي وجاري ومخزن أسراري، كم من مرة جلسنا في الليالي ندخن ويلفحنا هواء الحارة البارد، وأنا أحكي له عن مشاعري لأروى وكان هو يضحك..

كان مصطفى أكثر جرأة منّي، وكان «كيفًا» يشرب الحشيش بكثرة، وبعض المخدرات، في الآونة الأخيرة إنضم لإحدى عصابات «الغول»، وكان عدوّ شرس لأبي الفيحاء، الذي كان يسمّيه «أبي القحباء»، كان يقول أنه يدافع عن حريتنا وحرية الحارة، وأنّ الحرية هي أثمن شيء لدى الإنسان، ورغم إعتراضي على تصرفاته

الحمقاء أحيانًا، إلا أنه كان صديقي وكنت أحبه، إلى أن جاء اليوم المشئوم، الذي علمت فيه أن مصطفى قد رفض طلب أحد قادة عصابة «الغول» لإغتيال أحد قادة «أبي الفيحاء»، فتم تصفيته بجرعة زائدة من الهيروين.

حين أحتضنته وأنا أبكي، كان جسده البارد قد دمرته السموم، بدى منهكًا حتى في موته، وعندها بلغ السيل الزبى، لقد حان وقت الإنتقام، وقد آن للغضب أن ينفلت..

وفي تلك الليلة، ومع مجموعة من الشباب المتحمس، وبعد تخطيط طويل..

قمنا بالثورة..

هجمة كاسحة ومرعبة على عصابات «الغول» لم يسبق أن شهدت الحارة مثلها، كان رجال «أبي الفيحاء» قد آثروا المشاركة، وأمتنعوا بعد فتوى «أبي الفيحاء» بأن ما يحدث هو «شغب» وحرب عصابات وبلطجة، ـ وإن سمعت في الخفاء أنه كان هناك مفاوضات وإتصالات بين الغول وأبي الفيحاء للتهدئة ـ لكننا لم نكن نحتاج إليهم، كنّا نكتسح أوكار عصابة «الغول» واحدًا تلو الآخر، ورغم ضراوة الدفاع، إلا أننا سحقناهم تمامًا، ووصلت حشودنا إلى مكان لم يسبق أن وصل إليه أحد.. إلى مقر «الغول» شخصيًا..

ولأول مرة.. نرى «الغول» وجهًا لوجه، نظرت في عينيه لمدة طويلة، نظر «الغول» إلى بثبات، قبل أن يقول لي بصوت فخيم

هنيئًا لك.. لقد حققت إنتقامك.. أنا أعترف بخسارتي.. سأرحل عن هنا، ولن تروني مرة أخرى..

كان صدري يعلو ويهبط من فرط المجهود الذي بذلته، وكان هو هادئًا جدًا، وواثقًا من نفسه، لكني أحسست أنني إنتصرت، وأن الإنتقام قد تحقق..

«لكنك خسرت روحك»..

فالهالي بإبتسامة، ثم رحل.

****

بعدها بساعات معدودة، تم القبض علي بتهمة إثارة الشغب..!!

رحل «الغول» للأبد بالفعل، وأعلن «أبي الفيحاء» سحق تجار المخدرات وإنتصار الشريعة، وأصبح هو الآمر الناهي في الحارة بعد أن أحكم سيطرته عليها وعلى العباد، أما أنا فقد كنت أختلق المشاكل والمشاجرات، وأنا في السجن، وتم الحكم علي بـ 3 سنوات سجن.

في السجن تغير حالي من حال إلى حال، في البداية كنت أحاول المقاومة، وقررت أن أفرض نظامي الذي أريده أنا في السجن لا العكس، لكن بعض اللكمات، وبعض المعارك داخل السجن، جعلت قواي تخور، وأستسلمت لنظام السجن وسطوته، حتى وجدت نفسي في معظم الأوقات منعزلًا، وحيدًا، بدون أي عزيمة..

كنت كثيرًا ما أتكي برأسي على أحد حوائط السجن، وأفكر لي أروى، هذه الفتاة ما زالت تحبني، وترسل لي الرسائل من حين إلى آخر، وتقول إنها ستنتظرني حتى أخرج، وإنها لن تتخلى عنّي، أما أنا فقد أختلطت لديّ المشاعر، فبرغم حبّي لها، إلا أنني ظللت أفكر دائمًا في الألم الذي سببته، وسأسببه لها، لست أنا هاني الماضي، وحياتي إزدادت تعقيد، وحبي لها يدفعني إلى التخلي عنها، وعدم ربطها مع شخص مثلي.

ويبدو أن عزلتي وبؤسي قد جعلت أحد المساجين يتشجع ويتحدث معي:

- السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

- وعليكم السلام.

- رأيتك أكثر من مرة كئيب، وبدون صاحب، فقلت لعل الأخ ينضم إلينا، فيبتهج قلبه، وتصفو سريرته.

كان شخصًا ملتحي، وكان يتحدث بلغة عربية صرفة، يقولها وهو مبتسم وبشوش، أما الأصدقاء الذين دعاني للانضمام إليهم فهم مجموعة من السجناء يجلسون أحيانًا ليتحدثوا عن أمور الدنيا والدين، ويستمعون لبعض القرآن والأحاديث، كان بعضهم له هيئة جماعة «أبي الفيحاء»، ولكني قلت لا مانع في الانضمام إليهم، وتجربة بعض الوقت.

وبالفعل، أنضممت لهم، وبدأت أخالطهم، وأستمع إليهم

واقترب منهم شيئًا فشيئًا، كانوا يتحدثون بلهجة واثقة وكأنهم امتلكوا كل حلول الدنيا، كان لديهم لكل مشكلة إجابة، أما هم فقد تكفلوا بي وأهتموا، وأصبحوا يلقنوني كل ما تعلموه، حتى أنهم أرسلوا بعض النقود لأمي المريضة وأختي اليتيمة اللتان ما زالتا قطنان الحارة، وكنت رويدًا رويدًا أصبح أحد منهم.

ذات مرة سألت الشيخ محمد، وهو أحد المسجونين، وقائد هذه المجموعة:

- أرجوك يا شيخ محمد طمّني، هل ما حدث في الحارة كان صحيحًا، هل ما كان يفعله «أبي الفيحاء» وجماعته كان ضروريًا، وهم يفعلون ما يفعلون خارج دائرة القانون.

- الضرورات تبيح المحظورات يا أخ هاني، وإعلاء الدين ومحاربة الفساد من أهم الضرورات..

- أصدقني القول يا شيخ؟، هل نحن نتبع «أبي الفيحاء»..؟

- كلنا نتبع الهدى يا أخ هاني، لكننا تنظيميًا، نحن وأبي الفيحاء، نتبع شخصًا واحدًا، وهو أمير الجماعة..

هل كنت على خطأ، هل كانت إختياراتي خاطئة من البداية !؟، لم أعد أفهم، لكن الإقتراب منهم أكسبني راحة وتعاضد لا مثيل له، لقد هداني الله على أيديهم، وأنا مستعد الآن لهداية الآخرين، لكن ماذا عن أروى؟!، وحبي لها !، لابد أن أصحح الأمور فور خروجي لابد..

بعدها علمت كل شيء عنهم، أقصد عنّا، بعض هؤلاء الشيوخ يرتكبون بشكل متعمد بعض الأخطاء لكي يتم سجنهم، فقط لكي يلتقوا بالسجناء الآخرين أمثالي، ويقومون بهدايتهم، حتى حين يخرجون ينظمون مباشرة إلى الجماعة، إلى نصرة الله، ودين الحق، إلى محاربة الفساد والرذيلة، وكل من يقف في صفها، والقضاء على كل من يقف في وجه شرع الله، سنحارب إلى أن تنتهي السجون بعون الله، وتصبح بلادنا مزدهرة وتعيش في رخاء، وتختفي الحارة.. تختفي للأبد.. ويختفي الغول وكل من تسبب بأذيتنا.. ويصبح الجميع سعداء.. بدينهم ودنياهم.

الفصل السابع

ميدوري

يرويه: إلياس

«فووووووووووووووم»

أسمع صوت نزول الطائرات يبدو واضحًا من مكاني هنا، أدق بقدمي على الأرض مرارًا وتكرارًا، ويداي متعرقتان من فرط التوتر، لكني أحاول ألا أبلل باقة الورد التي أحملها، والكتاب.

«تعلن الخطوط الجوية عن وصول رحلتها القادمة من نيويورك.. تعلن الخطوط الجوية عن وصول رحلتها القادمة من نيويورك»، أزداد توترًا، وأنا أرى الحلم يتحقق، لا أصدق، هل بالفعل كل تلك المراسلات من رسائل متبادلة، وكل تلك الساعات التي قضيناها معًا في الدردشة على كل المواضيع ستتوج حقًا بلقاء، كل ذلك الشغف بذلك العالم الخيالي الذي أحببته سيصبح واقعًا..

« ميدوري أكينا»..

اليابانية الأمريكية القادمة من عوالم سحر المانجا اليابانية حيث عالمي المفضل..

رفعت الكتاب الذي جلبته، والذي سيكون العلامة التي ستميزني بها، رواية للكاتب الياباني المشهور «هاروكي موراكامي»، إنتبهت لي فتاة بيضاء ذو أعين ضيقة وشعر أسود فاحم مقصوص على الطريقة اليابانية المشهورة، هرعت لي بسعادة وهي تنادي بصوت رقيق وتبتسم:

ـ أوه إلياس:).

ـ تشرفت بلقاءك..

تبادلنا التحايا باللغة الإنجليزية، ثم سألتها مباشرة عن حقائبها، قالت مرتبك بالفعل، أوقعت الباقة، وكدت أقع أنا أيضًا، أصطدمت بأحد الركاب، وظللت أعتذر بإنحناءة يابانية ولا أعرف لماذا؟، وظللت أتجنب النظر إليها، لكني كنت سعيدًا وغير مصدّق..

«ميدوري أكينا»..

فتاة أمريكية من أصل ياباني، أتى جدها وجدتها في سنة 1946 لأمريكا، بعد إستسلام اليابان في الحرب العالمية الثانية، وتخلي الأمبراطور عن كونه إله، تزوج أباها من ابنة مهاجر ياباني تعرف عليه في ديترويت عندما كان يعمل هناك في شركة لتركيب الشبكات، ترعرعت الفتاة بصورة جيدة بسبب تحسن ويسر حال أسرتها التي إنتقلت بها إلى نيويورك، وهي الآن تدرس في جامعة «ألباني Albany» في نيويورك لإدارة الأعمال..

أما أنا فقد تعرفت عليها بسبب هوايتنا المشتركة وحبنا لعالم الأنمي والمانجا، في أوقات الفراغ ترسم أكينا كل الشخصيات المشهورة في عالم الأنمي، إل، لوفي، ناروتو، لولوش، كل شخصيات هذه الأنميات الجميلة التي تعلمنا منها الكثير، لم يكن الأنمي مجرد تسلية بالنسبة لنا، كان مدرسة فلسفية نتعلم منها عن الإنسان، الخير، الشر، الموت، كان بعض الأنميات تطرح مواضيع عميقة للنفس البشرية وذلك الصراع الوجودي مع الحياة والموت، كنا نقضي الساعات ونحن نتناقش عن كيف سيكون سير الأحداث في تلك المانجا، أو نتذكر كيف تأثرنا وبكينا بشدة عند موت تلك الشخصية.

لكن ما أسباب هذه المعجزة؟!

من فترة لا بأس بها، كانت تحدثني هذه الرائعة بجانب الأنمي، عن المؤسسة التي إنضمت لها مؤخرًا، والتي كانت تحت اسم « أنقذوا الإنسانية» Save The Humanity، وكيف أن هذه المؤسسة العالمية تقوم بمساعدة الناس المحتاجين والمتضررين في كل مكان في العالم، لطالما كنت مبهورًا بالنزعة الإنسانية، والثقافة الإنسانية التي تغزو العالم، في العالم المتحضر توجد الآلاف إن لم تكن عشرات الآلاف من المؤسسات الإنسانية التي تهتم بالإنسان الآخر، بدون أي تصنيفات، بدون أي تعصبات، أو توجهات، أتحدث عن تلك المؤسسات التي تقف في وجه الحروب والإستغلال والفقر والمجاعات، أتحدث عن تلك المؤسسات التي وقفت لتمد يد العون لمآساة هاييتي، والتي دافعت عن اللاجئين في كل بلدان العالم، ونظمت المهرجانات الغنائية لمساعدة مجاعات أفريقيا، وقامت بمشاريع جمع المياه لمن يعانون العطش في جميع أنحاء العالم.

كنت سعيدًا، وأنا أراها تحكي لي عن نشاطاتها البسيطة مع هذه المنظمة، كيف زارت أطفال مرضى السرطان، وكيف ساعدت عائلات المهجرين ضد إعصار كاترينا، وكيف كانوا يوفرون بعض الطعام للمتشردين، كانت تحكي لي وهي تبكي، وتتألم، وكنت أقدس فيها روحها النبيلة، وكنت أنزلق لحبها كل يوم، فكيف يمكنك ألا تحب إنسانة نقية بهذه الكيفية.

لذا لم أصدق نفسي، وهي تحكي لي بسعادة كيف أنها إنضمت

بعثة قادمة إلينا لكي تقيّم بعض التجاوزات التي تقوم بها بعض الشركات هنا، من خلال محاولتهم مضايقة بعض العائلات الفقيرة، والأطفال الأيتام، الذين يعيشون في أرض بالقرب من ممتلكات الشركة، الشركة تريد أن تجعلهم ينزحون بالقوة، وبالفعل بدأت الآنسة ميدوري في عملها لتقييم الوضع مع مجموعتها من هناك ومراسلة الجهات المختصة قبل يقرروا أن الوضع بحاجة لزيارة ميدانية عاجلة، وهكذا كان.

****

من أجل الإنسانية المعذبة، ومن أجل عينا ميدوري أنهض كل صباح الساعة السابعة، فقد تطوعت لأكون مرافق البعثة من أجل قضاء أكبر قدر ممكن من الوقت بجانب أكينا، توقظني ميدوري كل صباح بمكالمة هاتفية نشيطة وهي تقول:

- سباح الهير يا إلياس.. هيا إنهز أيها الكسول !:).. لكد تأخر الوكت..

أنهض لأكون في مقر البعثة الساعة الثامنة، تطالعني أكينا بقميص أبيض بسيط ذو أكمام قصيرة وشورت كاكي للركبة وقبعة وشنطة كتف، تبتسم لي وكأن العالم كله يبتسم لها بشعرها الناعم الياباني المميز وهي تقول:

- سباح مشرق إلياس.. هيا بنا..

بقربها أشعر بالسعادة، أشعر أنني إنسان من جديد، ننطلق

كل يوم من وسط العاصمة حيث الفندق المقيمين فيه البعثة، إلى أطراف العاصمة حيث يقبع ذلك المصنع الضخم، وبجواره أراضي ومساكن العائلات الفقيرة، التي تحاول الشركة المالكة للمصنع طردهم للإستيلاء على المكان، والقيام بتوسعة لمصنعهم، تحاول البعثة كل يوم الإلتقاء بمسؤولين في المصنع والحديث معهم، ولكنهم يرفضون، لكن ميدوري ومن معها ورغم الرفض لا تستسلم، بل تقول لي في سعادة كل يوم: «سنهاول المرة الكادمة:)»..

كانت الشركة تستغل تهمة التمويل الأجنبي، والعمالة، والأجندات، والجاسوسية، وكل عقد العداء ضد الآخر، لكن ميدوري ورفاقها كانوا مصريين على المحاولة، ومدفوعيين بإنسانيتهم لا غير.

بعد الرفض الروتيني نذهب مباشرة للقاء العائلات المتضررة، ويمكنني أن أقول أن هذا الوقت، هو الوقت الأجمل في كل يوم، تقوم ميدوري وفريقها بعمل إستبيانات وإستطلاعات صحفية حول هذه العائلات، لكن العمل الحقيقي الذي يقومون به، هو ذلك الإلتقاء الإنساني مع هذه العائلات التي تعيش هذه الظروف الصعبة، محاولة مؤازرتهم، وإبعاد شبح الخوف عنهم، هذا الخوف من فقدان المكان والملجأ والأمان، هذا هو ما تحاول ميدوري وفريقها أن تفعله، كل يوم كنا نذهب إلى هناك لمحاولة إشاعة جو من الإطمئنان والمساندة لقضية هذه العائلات، إيجاد حلول يومية لمشاكلهم، مساعدتهم، وحتى الترفيه عنهم أحيانًا واللعب مع الأطفال.

هناك تعرفنا على أطفال كثيرين، لكن أكثر الأطفال الذين تعلقوا

بنا، وتعلقنا بهم، وكانوا ينتظرون مجيئنا كل يوم هم ثلاثة، حسن وزينب ويزيد..

كان حسن ذو رأس دائري وبشرة قمحية اللون وسن لم تتجاوز الخمس سنوات، في أول لقاء بنا دفن رأسه في حضن أبيه، ورفض أن يسلّم علينا، في اليوم التالي جلبت له ميدوري لعبة اليويو الشهيرة، كانت اليويو ملونة ومزركشة بكل ألوان الطيف، وكانت حينما تدور تصنع ما يشبه قوس قزح، منذ ذلك اليوم، وهو ينتظرنا كل يوم ليأتي ويهرع إلى حضن أكينا وهو يقول «يويو.. يويو»، لقد صار اسم ميدوري «يويو» منذ ذلك اليوم..

أما زينب فقد كانت ابنة السادسة، بيضاء، وشعر معقوف على هيئة فرنين، كانت تسألنا في البداية بكل براءة: «أنتو منو؟» وكنا نضحك، ونجيبها أجوبة تناسب سنّها، لكنها كانت أكبر من سنها وهي تقول: «لا.. انتو جيتو باش تساعدونا..صح؟!» بعدها أصبحت زينب رفيقتنا المفضلة في كل الألعاب، وخاصة وإنها تحب ان أدفعها في الأرجوحة وهي تصرخ: «دفني عمو إلياس.. دف أقوى..!».

أما يزيد فقد كان ابن التاسعة، كان يبدو ذكي ولماح رغم أنه للأسف لم يدخل المدرسة، السبب قال: «أنا راجل»، وكان يساعد أباه في سوق الخضرة القريب، في البداية كان يقف بعيدًا ليراقبنا، ومع إقترابنا اليومي مع الأطفال، ولعبنا معهم، أصبح يقترب رويدًا رويدًا حتى أصبح واحدًا من الشلة المقربة..

«ربي يبارك فيكم يا وليداتي»، دعاء العجائز، وتلويح الأطفال لنا، ونحن نرحل يوميًا عن المكان، كانت أجواء لا توصف، وبدأت أشعر بسعادة لم أتذوق طعمها من قبل، كنت في البداية أفعلها من أجل ميدوري، والآن صرت أفعلها من أجلي..

بعد إنقضاء النهار، يصبح الوقت حرًا، عندها نمضي أنا وميدوري لنخرج ونرى المدينة، ثم نجلس بعد جولاتنا في أحد مقاهي وسط البلد لنتحدث أكثر، كنا نتحدث عن حياتها وحياتي والسياسة والفن والدين والإقتصاد، كنت أشعر بإنني أقترب منها أكثر، وهي تقترب مني أكثر، كنت أرى مشاعر الحب في عينيها، وكنت سعيدًا بها، لكن أكثر ما كنا نتحدث عنه هو معشوقتنا المشتركة، «اليابان»، في إحدى الجلسات سألتها بكل اهتمام:

ـ ما سبب نهضة اليابان؟!

قالت لي ميدوري:

ـ بدأ الأمر في «فترة ميجي» سنة (1912 – 1868)، أي في عصر الأمبراطور ميجي، في هذا العصر، تولت شؤون البلاد حكومة جديدة سميت وقتها بالحكومة المستنيرة، كان هناك في اليابان صراع وقتها بين الإتجاه لبناء بلاد ثرية بجيش جبار، أو بين عدم خوض أي مغامرات عسكرية والتركيز على قطاعي التعليم والصناعة، وقد كان الإتجاه الثاني، وفعلًا، بدأت الإصلاحات بشكل قوي بإلغاء الطبقية، وتجريد رجال الساموراي من أسلحتهم، ثم إرسال بعثات للولايات المتحدة وأوروبا، وجلب خبراء ومهندسين من الخارج

عددهم فاق 3000 خبير، من بينهم خبراء ألمان ساهموا في وضع نظام تعليمي جديد.

أيضا في هذا العصر، إنطلقت حركة ترجمة جبارة، وخلال عشرة سنوات تمت ترجمة مئات الآلاف من العناوين للغة اليابانية، ساهمت في حراك ثقافي كبير تأثر بأفكار المواطنة والحقوق المدنية نتج عنها كتابة الدستور الياباني بشكل عصري وحديث.

كان عصر ميجي بالفعل عصر التنوير الياباني، لكن بموت الملك ميجي سنة 1912، وتقلد الإمبراطور تايشو العرش، إنتهى عصر ميجي، ودخلت اليابان للأسف في حروب رعناء مع الصين في الحرب اليابانية الصينية، ثم روسيا في الحرب الروسية اليابانية، ثم مع أمريكا والحرب العالمية الثانية التي إنتهت بمأساة هيروشيما وناكازاكي.

رشمت رشفة بشفتيها المكتنزتين من كوب كاكاوها الساخن قبل أن تكمل..

بعد إستسلام اليابان، ثم نزع سلاح اليابان، ووضع دستور جديد للبلاد عام 1947، منعت فيه اليابان نفسها من الإشتراك في أي حرب مع أي دولة أجنبية، عندها تعلمت اليابان الدرس من جديد، وقررت أن تبني نفسها، ومن هنا ظهرت «المعجزة الإقتصادية اليابانية بعد الحرب»، وهو الاسم الذي تم إطلاقه على هذه الظاهرة في النمو والتقدم الياباني.

كان قائد هذه المعجزة الإقتصادية هو رئيس الوزراء الياباني «هاياتو أيكيد»، الذي أعتمد سياسة الصناعات الثقيلة، كانت السفن والطاقة الكهربائية والصلب والسيارات وكل الصناعات الثقيلة تصنع في اليابان بشركات يابانية، بعد هذه المرحلة تم إطلاق نظام إستثماري موسع لإقامة البنية التحتية اليابانية بهذه الشركات، كما تم تحرير التجارة، وبدأت اليابان في عصر التصدير، ودعم نموذج الإقتصاد المختلط، وهذا ما ساهم في بناء يابان قوي.

كانت ميدوري تحكي بحب، وكنت أنا أراه في عينيها..

ولمدة شهر كامل، كانت شوارع المدينة شاهدة على خلق قصة حب، كأساطير خلق الكون اليابانية، «ما أجمل هذه الفتاة التي ألتقيت بها»، قالها إيزانجي الرجل لإيزانمي الأنثى، حينما أمرتهم الآلهة بخلق العالم، أما إيزانمي فقد قالت: «كم أنا سعيدة بأن أكون زوجة لك»، كنت لها إيزانجي وكانت لي إيزانمي، ألتقينا فأصطدمنا فأنفجرنا، فوُلدت جزر اليابان الثمانية الكبرى، وأنجبنا حبًا ليكون آلهة الشمس..

كنت لا أرتوي من إبتسامتها، وكانت لا ترتوي من حديثي، كانت حياتنا جميلة، أشبه بمعزوفة موسيقية تعزفها كاوري كوبایاشي بالسكسفون، كانت حياتنا مبهجة، كأغنية البداية لوان بيس الذي يقول فيها «تعال الآن ومد يدك لأعلى وغني عن أحلامك»، كانت حياتنا ساخنة، كأكلة رامن لم تسكب من القدر بعد.

مارقًا في لذة حبها في أحد الصباحات الجميلة، رن هاتفي ليوقظني صوتها المفزوع:

- أرجوك.. ساعدي.. إلياس..

- مابك حبيبتي أكينا؟!

- لقد إكتشفت سرًا خطيرًا، وعليك مساعدتي..

بعد أن غيرت ملابسي بسرعة، وهرعت إلى ذلك المقهى لألتقيها، بدأت تحكي لي السر الذي أكتشفته، كانت بعثتها تستعد للرحيل في الأيام المقبلة، بعد أن قامت بتسوية مرضية مع الدولة، وذلك بنقل العائلات إلى منطقة أخرى، تعمل على توفيرها الدولة، لكن أكينا وهي تبحث وراء خبايا الشركة، إكتشفت أن هناك إحتمالية أن الشركة كانت تقوم بدفن نفايات ومخلفات كيميائية مشعة في الأرض التي كانت تقطنها العائلات المسكينة وأطفالها، وكان لابدّ من التأكد من هذه النتائج التي توصلت إليها..

«لهذا كانت الشركة تحاول إخراج العائلات من هناك»..!!

تنهدت تنهيدة طويلة قبل أن أقول لها مطمئنًا:

- أوك.. سنتصرف.. سنتقصى وحدنا أولًا.. ثم بعد ذلك نبلغ الجميع..

وبالفعل، حادثت بعد الأصدقاء لي ليقوموا بفحص المكان إن كان به أي مواد مشعة، ثم ذهبنا بالأطفال لفحصهم إن كان قد أصابهم مكروه جراء ذلك، كان يزيد وحسن يضحكان لي طوال الرحلة،

أما الطفلة زينب، فقد أحسست أن في عينيها دموع ستنزل ا، فور وصولنا المستشفى أوصلت الأطفال الثلاثة إلى صديقي الدكتور لفحصهم، وجلسنا أنا وميدوري نصلّي ألا يكون أصابهم مكرو

لكن الخبر جاء صادمًا، حتى أن أكينا أطلقت صرخة لأول مرا الأطفال الثلاثة قد أصيبوا بالفعل بالسرطان في أماكن مختلفة من جسمهم، نتيجة تعرضهم لإشعاعات ومواد ملوثة بشكل حاد ويجب البدء في علاجهم حالًا، كانت ساعات سوداء بالمعنى الحرفي للكلمة، لكننا وسط كل هذا الخضم لم ننتبه لشيء خطير، البعثة أيضًا بقيت شهرًا كاملًا يترددون على المكان بما فيهم ميدوري وأنا..

بسرعة قامت ميدوري بإخبار البعثة بما يجري، وبالفعل قام الجميع بإجراء فحوصات للتأكد من سلامتهم بما فيهم أكينا، وكان الخبر القاتل..

جميع البعثة لم تتضرر نتيجة لتعرضهم لنسب بسيطة من الإشعاع ولكن نتيجة لتشوه جيني لدى ميدوري، فقد سبب التلوث الإشعاعي لها أضرار كبيرة في جسدها، وهي الآن محتاجة للعلاج بشكل عاجل.

في البداية، وأنا أبكي بين أحضانها، طمأنتني وقالت وهي تضحك: إلياس حبيبي لا تقلق، الطب في أمريكا متقدم جدًا وسأذهب لأعالج هناك ثم أعود إليك، لماذا أنت قلق هكذا، ألم أعدك بأن نكمل حياتنا مع بعض، ألم أعدك أن نقضي أوقاتًا ونحن

سجوزان تحت شجرة كرز في اليابان، ونذهب لمهرجان «كوميك كون» للأنمي مع بعض، لا تجعلني أحزن لحزنك أرجوك.

هل حقًا سنفعل ذلك يا حبيبتي ميدوري، هل حقًا سنكون شخصيات كاتبنا المفضل هاروكي موراكامي في روايته وان كيو 84، أن أنقذك كما أنقذ البطل «نينجو» بطلة الرواية «أومامي»، لتنتهي قصتنا بمشهد لوقوفنا جنبًا إلى جنب، متشابكي الأيدي، نبحث عن قمر وحيد مضيء بالمساء!، هل تذكرين لحظة أن لوحت لك بهذه الرواية لتعرفتني، لحظة لقاءنا لأول مرة، إبتسامتك، إرتباكي، هل تذكرين حبيبتي أكينا، هل تعدينني أن حياتنا كلها ستكون مع بعض.

لكن ما فائدة الوعود..؟!

بعد سنة كاملة من العلاج في أمريكا.. ماتت أكينا..

ماتت أكينا دون أن تعرف إن كان لوفي سيعثر على الوان بيس أم لا، ماتت قبل أن تعد لي الرامن الذي وعدتني به، ماتت رغم كل محاولات الدكاترة إنقاذها، ماتت دون أن تقول لي، متى سنلتقي مجددًا..

بعد موت أكينا، ماتت زينب ومات حسن، أما يزيد فما زال يصارع البقاء، أما عن الشركة وصاحبها، فقد فلتا من العقاب، رغم كل محاولات الملاحقة القضائية، أو التحقيق، إلا أن الشركة كانت مسيطرة، ومع بعض الرشاوي هنا وهناك، وبعض النفوذ السياسي، إستطاعت أن تنجو من العقاب، وأغلق الملف بالكامل..

أما أنا فقد ظللت أبكي في كل مرّة أتذكر فيها أكينا، وهي تغني مع أغنية وان بيس وهو يقول:

والآن.. فلتنصت إليّ..

مهما بلغ عدد البحار التي تفصل بيننا..

سأظل دائمًا بجانبك لأنصرك..

فلا تخشى المضي قدمًا..

وإياك أن تنسى..

إننا نقاوم معًا..

الفصل الثامن

فيمينيزم

ترويه: سارة

كيف إستطاع هذا الرجل أن يدخل قلبي أصلًا..

في ذلك المقهى الراقي، تعمدت أن أكون صدامية من أول لقاء لنا، ليأخذني ويقبلني كما أنا، أو ليهرب بجلده إذا شاء، ولذا، تراني أنفث الدخان من سيجارتي في الهواء، وأنظر له نظرة تحدّي واضحة، بينما يجلس هو بهدوء شديد، وإبتسامة واثقة تعلو وجهه، مددت له علبة «الدخان»، فرفضها شاكرًا، فقلت متعجبة: « ألا تدخن»..؟!

- أجاب بإبتسامة: لا لا.. لا أدخّن.. ولا أشرب.. حتى القهوة والشاي..

ـ أيوجد رجل لا يدخّن..!!

لم يرد على إهانتي المبطنة، ظل محتفظًا بإبتسامته، فتابعت:

ـ لكن ليس لديك مشكلة مع الفتيات التي تدخن.. صح؟!!

ـ بتاتًا.. لهنَّ كامل الحرية..

إعتلت منّي إبتسامة صغيرة، وكأني لم أستطع أن أخفي سعادتي بأولى إنتصاراتي، أكملت معللة:

ـ معليشي.. الأوضاع المنيكة هاذي تخليك تسبّس غابة..!!

ضحك ولم يرد..

أجبت بسرعة وقد أكتشفت سبب ضحكته متعجبة:

ـ لا لا.. ما تقوليش إنك ما تسبش حتى السبان، تي منو أنت.. فاكن قديّس..

أجاب بإبتسامته الشافية المعهودة:

ـ لستُ قديسًا.. ولكن إسمي هو الخضر..

****

كيف تعرفت عليه..

الحقيقة أن الأمر بدأ يوم قررت أن أتمرد، أن أكف عن لعب دور الكائن الضعيف المغلوب على أمره في هذا المجتمع السايكو، بدأ الأمر عندما قررت التمرد على هذا المجتمع الباطيريقي، الذي يلعب فيه الذكور كل الأدوار، وتصبح المرأة فيه تلعب دورًا هامشيًا لا يتجاوز المتعة والخدمة، أما أن تصبح كائنًا مستقلًا له من الحريات والواجبات ما يماثلها في الذكر الإنسان، فهو مستحيل، لهذا أطلقت تلك الصفحة على الفيس، وأسميتها..

.. «أنا إمرأة حرة»..

في البداية كان للصفحة مجرد مئات بسيطة من المعجبين، لكن أصدق الصفحة، وقوتها وجرأتها في طرح المواضيع الحقيقية، التي لامست بالفعل عقد هذا المجتمع المريض، بدأت الآلاف تدخل الصفحة، ومعها آلاف الشتائم والتهديدات، وهنا تكتشف المفارقة الغريبة، هذا المجتمع مريض فعلًا، ففي اللحظة التي يسبونك فيها على وول الصفحة، يحاولون التودد لك ومضاجعتك في الرسائل الخاصة، هم نفس الأشخاص الذين يهاجمونك، ويقولون عنك أنك منحلة وفاسدة وعاهرة، هم نفس الأشخاص الذين لا يستطيعون

الكف عن متابعتك، والتعلق بك، ورؤية كل ما تحسين به وتشعرين، نعم.. دمّالة هذا المجتمع أنا من قُمت بالدوس عليها، فأخرجت كل هذا القيح في وجهي أنا..

لكن وسط هذا البحر الهائج من الصديد، والمشاكل التي توترني أحيانًا، وتجعلني أبكي، لا أنكر أنني فزت بأصدقاء رائعين، وفتيات رائعات متمردات مثلي، ومع مرور الوقت، تشكلت تلك الرابطة القوية مع بعض الصديقات المناضلات مثلي، ولكن كيف أستطاع «خضر» التواجد معنا، وإختراقنا بهذه البساطة !!، تعرفت عليه عبر الرسائل الخاصة، كنت أتجادل معه، وأنفس عن غضبي إتجاه الرجل الشرقي المتعفن، كان يقول لي:

ـ ومن أنتِ؟، سيمون دي بوفوار..؟!

ـ نعم أنا سيمون دي بوفوار.. وغلوريا ستاينم.. وبيتي فريدان.. ورجاء بن سلامة.. ونوال السعداوي.. وكل المناضلات الذين مهدوا لنا الطريق..

ـ لم يعرفهم أحد.. من هم أصلا..!!

ـ لعن الله الجهل..

ـ سيقولون لك هذا ليس جهلًا.. إنه دين..

ـ ما نبيشي الدين اللي يعاملني أقل من إنسانة..

ـ حيقولولك الشيخ قال حرام..

ـ يقعمزوا عليهم شيوخهم.. طز..

ينعتونني في الصفحة بالكافرة، والملحدة، والمعترضة على كلام الله، لكنهم لا يعرفون أنهم برفضهم للتجديد الديني سيرغمون أجيال من الشباب على الإلحاد والكفر بهذا الدين، العالم يتطور، والنمط الزراعي الذي كان يعيشه رجل الغاب في الماضي تحول إلى عصر الصناعة، والعلم، والتكنولوجيات، النظام الرعوي الاجتماعي القائم على تقديم المصلحة العامة على قيمة الفرد أنتهى للأبد، وحلت محله قيم جديدة تعزز مكانة الفرد وحرياته وخياراته، نعم هذا هو الوضع السوي وليس العكس، لأن المجتمع لا يملك روحًا واحدة، أو كيانًا واحدًا، الفرد هو من يملك هذه الروح، هو الذي يتألم لوحده، ويفرح لوحده، ويبكي لوحده، هو سيد نفسه، وحر في داخله الذاتي، هذه هي الطبيعة الإنسانية كما وُجدت..

يتهمونني بأنني أدعوا إلى الإنحلال والبغاء، وأنني أضيّع بناتهم، لكنّي بالعكس، أدعوا إلى الفتاة المثقفة الواعية التي تعتمد على نفسها، وتقف لمواجهة من يستغلها، ويرفض خياراتهم، بناتكم اللاتي تخافون عليهم أيها السادة قد فسدوا بسبب تربيتكم الفاسدة لهم، بناتكم تافهات ومنحطات بسببكم، بناتكم كائنات جنسية مكبوتة تنتظر الإنفجار بسببكم أنتم لا غير، هل دخلتم يومًا في عقول بناتكم وشاهدتم فيما يفكرن، ثلاثة أرباعهن يأخذون الحياة بتفاهة: «مكياجي، تسريحتي، نبي راجل يجيبني كامل ومكمل، حوش وسيارة صح وهدايا، نبي حفلتي تكون أحلى من حفلة بنت خالتي، واو.. شوفيها هاذيكا شن دارت.. قفطانها يهبّل.. حبني.. كلمني..

شبحلي».. والعشرات من التصرفات خلف ظهوركم، هل هذا ما تريدونه، «ما دمت لا أرى، فإنه لا يحدث»، أكل هذا لإرضاء غرور الرجل الشرقي، أما من ينادي بالثقافة والحرية، وأخذ زمام الأمور فهو سيء، ألا سحقًا لكم أيتها العاهات البشرية..

الأيام التي تلت ذلك، كان الضغط يزداد عليَّ فعلًا، كنت قد فشلت في بعض مواد دراستي، وكانت التهديدات تزداد، والحقيقة أنني فكرت في الإنتحار أكثر من مرة، ولكن كان خضر يحاول دائمًا تهدئتي برسائله وكلماته الرقيقة، ودائما ما كان يقول لي: « لا تستسلمي»، دافعي عن فكرتك حتى النهاية، كنت حينما أحس أن السماء قد أسودت أتصل به فيلبي النداء، ويهرع لي حالًا لنتقابل، كنت أشعر بإحتياجي له يكبر ويزداد، وأصبح وجوده بالنسبة لي، بلسمًا لحياتي، ورقته أصبحت الدواء لجسمي العليل، لقد أصبح هو من يعطيني القوة، ويجعني سعيدة في هذه الحياة..

من أين أتى هذا الرجل..؟!

من أي عالم جاء؟!، من أي زمن، ماذا فعل بي، وكيف غيرني لهذه الدرجة، أعتقد أنني بدأت أحبه، بدأت أعشقه، رغم غموضه، وغرابة أطواره، كان غريب الأطوار فعلًا، حتى أنني لم أعد أفهمه، كان يغيب بالأيام، وأحيانًا لأكثر من شهر، ثم يعود لي، كنت في البداية أعترض على غياباته، أبكي، ألومه، أقول له لا ترحل عني، كن بجانبي دائمًا، ولكنه كان دائمًا ما يقول لي بإبتسامته الدافئة: ستفهمين.. فقط لا تسأليني الآن..!

أحيانًا كان يأتي لي مرهقًا.. وكأنه كان يحرك دفة العالم لوحده لخيره..!!

لكن في ذلك اليوم.. حدث شيء غريب.. وعندها فهمت..

كنتُ برفقته في ذلك اليوم، نتنزه في أحد المولات الجديدة، كنّا سعداء جدًا، وكنت سعيدة أنا شخصيًا بوجوده الدائم معي خلال الفترة الماضية، وقضاء وقت جميل معه، فجأة لمح «خضر» من بعيد ثلاثة رجال يلبسون الأسود، رجال ببدل سوداء ونظارات سوداء كالأفلام تمامًا، لمحهم وهم يتقدمون من بعيد إتجاهنا، فقال لي وهو يمسك بيدي:

ـ سارة، لنهرب الآن..

ودون أي لحظة تفكير وجدت نفسي أجري أنا وخضر، ووراءنا الرجال الثلاثة الذين أكتشفوا إكتشافنا لهم، وبعد مطاردة إستغرقت كثيرًا، نجحنا في تضييعهم، وقفنا نلهث أنا وخضر من فرط الجري، وكان أول سؤال أسأله له:

ـ من هؤلاء يا خضر، أرجوك أخبرني..

كنت أكاد أموت من الخوف، وظننت في البداية أنهم يقصدونني، لكن خضر قال لي:

ـ هؤلاء يريدونني أنا، وهم يتبعونني منذ مدة..

ـ «أرجوك يا خضر.. أخبرني.. ماذا يجري.. أني خايفة !!»..

نظر لي نظرة عميقة، وكأنه يفكر في قرار خطير، نظرت له بعينان خائفتان عاشقتان تنتظران جوابًا لكل هذه التساؤلات فأجاب:

ـ تعالي نمضي إلى مكان هادئ، وسأخبرك بكل شيء..

لكن ما سمعته كان أغرب من الخيال، في البداية لم أصدق نفسي، ظللت كالبلهاء أستمع لما يقوله دون أي ردة فعل، ثم أنني ظللت أبكي أيامًا، لأن ما حكاه كان قاسيًا، ومؤلمًا، وجميل، ثم في النهاية تقبلت الأمر.

« الحب هو مفتاح كل الأحداث»..

لقد أصبحت أسيرة هذا الرجل، لقد أصبحت جزء من منظومته الكونية، من خطته الفكرية، من أدواته للتغيير، لم أعد أفهم كيف أصبحت أنا الفيمانيست الأكثر جنونًا، بقربه الأنثى الأكثر هدوء..

ثم قررنا أن ننتقل المشروع لـ Level جديد..

نعم.. أنا مستعدة للتنوير، أنا مستعدة لإطلاق مشروعي بشكل مختلف، أنا مستعدة للبدء بثورة المفاهيم، هذا المجتمع لن يتغير ما لم تنهض به المرأة، المرأة نصف المجتمع، نصف الدولة، نصف الحياة، وما لم تتحرر وتنهض، سنظل دائمًا شعبًا معاقًا أعرج، لا نقوى على شيء..

الجهل هو نقطة البداية، لابد من القضاء على الجهل، أغلب الفتيات لا تعرف أن ما تنادي به ليس جديدًا علينا، هناك حركات تنوير ونهضة كانت موجودة في السابق، نحتاج إلى التأسيس من

القاعدة، إلى تكوين مدارس تنوير سرية، يخرج منه جيل من المفكرات والمناضلات، أما الخطوة الثانية فهي تحويل الموقع من مجرد موقع عادي إلى شبكة تفاعلية، حركة فعلية تشترك فيها كل الصديقات، لينضم إلينا العديد من الفتيات اللاتي أصبحن مؤمنات بالقضية..

في أحد لقاءاتنا قال لي الخضر:

- سارة.. أريدك أن تساعديني في محادثة إحدى الصديقات، أريدها أن تنفذ لي مهمة خاصة..

وعندما ذكر لي إسمها، قلت:

- إختيار جيد.. هذه الفتاة ذكائها مذهل.

وتذكرت قصتي معها..

تذكرت كيف حكت لي عن ظروف حياتها الصعبة، وأنها تعاني من أخ تحول فجأة إلى شخص متطرف أرغمها على التدين، حكت لي كيف كانت تعيش معزولة، ومتدينة ولكن ليس بإختيارها، ولكن تحت ضغط أخيها والمجتمع، تحدث لي عن مأساة شخص أحبته في الماضي وصدمتها، تحدثت لي عن كيف أنها وجدت صفحتي كمتنفس لها، وكيف أنها كانت تسرق الإنترنت سرقة لكي تدخل لها، كانت تتمنى أن يكون لها هواية، أصدقاء، حياة خاصة بها، حياة ملكها هي فقط، وليس كالحياة التي أرغمت عليها، فقط كانت تحتاج لمن يدلها على الطريق على أشياء لم تكن تراها قبل، وأحلام لم

تعلـم أن أنـاس آخرين يشـاركونها نفـس الحلم..

بعد ذلـك أصبحت هذه الصديقة مـن أهم المتمردات، والناشـطات لدينـا، وإن كانت في الخفاء..

أبتسمت وقلت للخضر:

ـ سأحدثها، وسأرى إن كانت تريد المساعدة..

ـ جميل..

ضحكت له بسعادة وقلت له: ما ورائك.. ما الذي تخطط له..!!

أجابني في جدية وثقة:

ـ الآن نكتب معًا قصة الخلق..!!

الفصل التاسع

المشروع

يرويه: أحمد

هل جرّبت من قبل العيش مع فتاة لا تعرفها في بيت واحد..

أصحو من النوم متثاقلًا، أظل أفكر في فراشي لمدة ربع ساعة كاملة قبل أن أقرر النهوض، أنظر إلى هذا العالم بنظرة ناعسة، أدخل الحمام فأجد فرشاة وردية غير معتاد نظري عليها، أجلس على «المحبس» متثائبًا، لأجد العديد من الأشياء الوردية والبناتية ملقاة هنا وهناك بعضها ميزته وبعضها لم أستطع تميزه، أخرج من الحمام لأجدها تتحرك بشورت، وفانيلة مرسوم عليها «تويتي» إلى المطبخ، تنظر لي في الطريق لتبتسم إبتسامتها المرحة وهي تقول:

ـ صباح الخير:)، سأعد لك الإفطار، «حنو كلك عجّة»..

أبتسم إبتسامة باردة، وأذهب لأستلقي على الكنبة، أرى من بعيد ملابسها الداخلية وهي منشورة على المنشر، «فرعة» صغيرة وردية ذات قلوب، والعديد من «التستيانات» المتعددة الألوان..

آخ.. ما الذي فعلته في نفسي..

منذ أن جلبت «رانيا» لشقتي، وأنا لا أكاد أصدق، في البداية إنتابتني حالة من الهستيريا، كنت أتصور أن يأتي أحد ما ليقتحم الشقة ويعتقلني، أو يسألني أحد بكل غلظة، «ما الذي تفعله فتاة في شقتك لوحدكما؟»، من هي؟، من تكون، بعدها بأيام لم يحدث شيء، وأكتشفت أن لا أحد يهتم فعلًا، فقد عليّ أن أكون حذرًا، فلا أجعلها تخرج أبدًا، أو تطل من الشباك والنوافذ، وأنا أخرج لأجلب الأشياء الضرورية لنا..

قمت بإيجار هذه الشقة قبل إنفصالي عن شدى، كنا في الأيام الأخيرة نجتمع بها من أجل المشروع، وكنت أنوي أن أسكن فيها مع شذى بعد زواجنا، بعد ذلك إحتفظت بها لأنني وجدت فيها عزلتي، وإن كنت أذهب لزيارة أمي من الحين للآخر للإطمئنان عليها.

وأنا آكل الكورنيفليكس الذي أعدته لنا بعد إحتراق «العجّة»، أنظر مليًا إلى شعرها الجميل المتموّج، في الأيام الأولى لمجيئها، كنت أحس أنني أعيش مع كائن غريب عني، ظللت أتأملها كيف تمشي، وكيف تجلس، وكيف تحرك يديها أو تأكل أو تشرب، ثم بعد ذلك كففت عن النظر، وأعتدت على وجودها بشكل نهائي، هل يا ترى أحسّت بي وأنا أنظر «لمؤخرتها» في الأيام الأولى، أو التأمل الطويل لحركات نهديها !، ربما أحسّت ولم تشأ أن تعلق، لكنني لم أفعل ذلك صدقًا بدافع «الإشتهاء»، ربما بدافع الفضول أو الغريزة، لكن بعد إعتيادي عليها لم أعد أفعل ذلك.

- بصراحة.. لا أعرف كيف أشكرك.. شكرًا لشهامتك بالفعل..

- لا تشكريني.. لم أفعل إلا واجبي..

تشكرني بنظرة حانية وعطوفة فعلًا، في حين أنا الذي يجب أن يشكرها، فما قمت به لأجلها أخرجني من كآبتي، وعادني للحياة.

- هل لديك إنترنت؟!

- نعم بالطبع لدي.. أجلبي جهازك لأعطيك كلمة السر..

ـ جهازي في غرفتي.. تعال معي هناك !

المزيد والمزيد من الملابس الداخلية !، تبتسم لي مرة أخرى بعد أن أوصلت لها الإنترنت في جهازها، وتقول لي شكرًا:).. أما أنا فأعود لغرفتي مرة أخرى..

مضت ثلاثة أسابيع الآن منذ أن جاءت رانيا إلى شقتي..

«ماذا تفعل؟!»..

أجفل للحظات، في ذلك اليوم، وجدتها أمام غرفتي بعدها بدقائق، بفانلة كات تحمل صورة سبانك، وهو ينظر لي بعينين على صورة قلوب، وشورت قصير كالعادة..

كنت أقرأ كتاب عن الحرب الطائفية بين السنة والشيعة منذ الانشقاق التاريخي، كان كتابًا أسودًا وبغيض أدفن فيه أحزاني، نظرت لملابسي نظرة خجولة فلم أعرف ماذا أفعل، كنت ألبس شورت بدوري و«كاناتيرا» على جسد عاري، سألتني بكل رقة وهي تبتسم للمنظر:

ـ أأقوم بإعداد قهوة لك معي، لتساعدك في القراءة!

ـ لا شكرًا.. لا أشرب القهوة !

ـ لا تشرب القهوة؟!، كما لاحظت أنك لا تدخن ! غريبة بالفعل..!

ابتسمت بمعنى «ما غريب إلا الشيطان»، لكنها دخلت للغرفة بدافع الفضول والاستغراب، كانت أول مرة تدخلها، وكنت خجلًا

هذا من الفوضى والملابس الملقاة في كل مكان..

أخذت تحوم حول الغرفة بأكملها، ثم ما أن وصلت لطاولة الكمبيوتر الخاصة بي، ورأت بعض الأوراق والمعادلات والبحوث العلمية المبعثرة هنا وهناك، حتى سألت في فضول:

- ماذا تفعل بكل هذه الأوراق.. يبدو أنك تفعل شيئا ما.. هل أنت كاتب أو عالم أو شيء من هذا القبيل..

- لن تصدقي إن قلت لك..

- جربني..!

تبتسم، تلتقط كرسي لتجلس عليه بمؤخرتها الممتلئة في ذلك الشورت الضيق، وتضع على وجهها علامات الإنتباه، تنهدت، ثم قالت لها في ضجر:

- هي نظريات كنت أشتغل عليها أنا وصديق لي يدعى «جمال»، حتى نتوصل إلى حل يمكننا من خلاله السفر عبر الزمن، هذه الرغبة التي داعبت مخيلة الجميع، هذا الحلم الذي راود الإنسان منذ الوجود..

نظرت لعينيها التي توسعت من فرط الدهشة، لم تنبس ببنت شفة، بل واصلت التركيز بينما واصلت أنا الحديث..

- إينشتاين يقول أن الزمن نسبي، فإن أنتِ سبقتي الضوء الذي هو وحدة قيام الزمن، وأنطلقت بسرعة تتجاوز هذه السرعة، فإنك ستجدين نفسك في الماضي فعلًا..

«مفارقة التوأم Twin Paradox هي المثال الأبسط لهذه النظرية، فلو سافر أحد توأمين على سفينة لمدة عشرة أعوام بسرعة قريبة جدا من سرعة الضوء - مثلا - فسيجد ابنه المولود حديثًا قد أصبح عمره عشرين عامًا، أو أن أخيه التوأم يكبره بأقل من عشرة أعوام»..

لكن هذا الكلام ما زال نظريًا حتى الآن..

إذن ما اللذ كنا نحاول فعله نحن، كنا نحاول خلق فجوات زمكانية تحاكي فكرة الثقوب السوداء في الفضاء، للقفز عبرها في الزمن، كما تصورها جون ميتشيل في نظريته «أفق الحدث»..

وهذا هو كل ما في الأمر..

«واووووووووو»..

قالتها وهي منبهرة، بينما أنا أراقب إنبهارها وفي داخلي إحساس لذيذ أنني أثرت إعجابها..

لكنها بعد لحظات.. تنهدت.. وهي تميل بظهرها على الكرسي، وقرأت بعينيها سؤالًا عميقًا قادمًا، نظرت لي وقالت:

ـ« ولكن لماذا.. لماذا كنتما تريدان السفر»..!!

« لماذا كنا نريد السفر عبر الزمن؟!، سأقول لك لماذا، ألا ترغبين مثلًا في رؤية الزمن الماضي؟!، ألا ترغبين في التأكد من كل القصص والأحداث والروايات التي سمعنا عنها، والتي صدقناها أم لم نصدقها، ألا ترغبين بمشاهدة من قتل من؟!، من خان من؟!،

لكشف الآخرين عن قتال بعضهم !!، أن نكتشف الحقيقة الكونية، ونرى زيف الأوهام..

أليس في هذا لحظة تنوّر عظيمة قد ينقذ الأجيال القادمة من الدمار..

أن نكتشف دورة الحياة من البداية.. أن نقهر لأول مرة في تاريخ البشرية الزمن والموت..

ما قرأناه في كتب التراث، البداية والنهاية، قصص الأنبياء، الإنسان القديم، صحة النظريات العلمية، الدول والحضارات القديمة، الفرس، الرومان، القدس، العصر العباسي والأموي، الحروب الصليبية، أرض الميعاد وأرض الميلاد، الحروب العالمية، كيف هاجر الناس، الأعراق، الإكتشافات، النمو، التطور، الإزدهار، الإرتقاء، الخلود..

حين يتكشف كل شيء، وينجلي.. نتحد مع الوجود..

كانت أنفاسي تعلو وتهبط من فرط الإنفعال، كانت النشوة والحماسة قد دبّت في أوصالي من جديد، ويبدو أنها قد وصلت بشكل ما إلى «رانيا» أيضًا..

سألت بكل اهتمام:

- وهل قاربتم على النهاية..؟

- لا.. لقد توقف المشروع.. كنا قطعنا شوطًا لا بأس به،.. الحقيقة أننا توقفنا عن البحث، بسبب ظروف نفسية ألمت بي..

« لابـدّ أن تعـود للمواصلة.. يجب أن تواصـل.. لا تتوقف أرجوك من أجلي»..

قالتها وهي تبتسم، ويديها تمسكان يدي برجاء حار..

أربكني المشـهد، لمسـة يديها كانت حلوة جدًا، لكنهـا لطفت الأجواء قائلة وهي تنهض:

ـ هيـا.. لابـدّ أنـك جائـع، تعـال لنـأكل ونشـاهد فيلـم مـع بعض سـأعد لـك عشـاءً مميـزًا، وبعدها سـتعود لـترى أوراقك مـن جديد

جلسـت أنتظـر العشـاء، وأسـمع «رانيـا» وهـي تحـرك الأشـياء في المطبـخ، فجأة خرجـت علي وفي يدها شيء مـا، كان كتاب ملئ بالغبار قالـت لي في حماس:

ـ« أنظـر مـاذا وجـدت وأنـا أحضر العشـاء، تبـدو روايـة جميلة، هل يمكننـي أن أقرأها»..

يبـدو أنـه مهـما حاولـت تجاهـل المـاضي، فلابـد لـك مـن أن تصطدم بـه!، فـور رؤيتي للكتاب إنفجر ذلك السـيل مـن الذكريات، كانـت روايـة «الغابـة النرويجيـة» لموراكامـي، روايـة شـذى المفضلـة، تذكرتهـا، وتذكـرت ذلك المشـوار الطويل الذي قضيته معهـا، لا فائدة مـن نكـران الماضي، علينـا أن نتذكره، علينـا أن نتصل بـه، ونضعه على منضـدة التشريـح، علينا أن نفصصـه لحظة بلحظة لنتجاوزه، لنسـتفيد مـن التجربـة، ثم نمضي بعيـدًا عنها، هل حـان الوقت للمـضي قدمًا..

I once had a girl,or should I say ,she once had me...
She showed me her room , isn't it good norwegian wood?

(نعم هذه رواية جميلة جميلة لموراكامي.. ستحبينها جدًا..:)

نظر لي رانية بنظرية حانية، نظرة محبة، شذى كانت حب حياتي، وحان الوقت لكي أواصل، «لابد من المواصلة»، بعد العشاء ذهبت لأحرج ما بقي من أوراق لم تحترق بعد، ألتقط المتساقط والمبعثر منها هنا وهناك، ألتقط نفسي من جديد، أجمّعها، ثم أضغط أزرار الهاتف، لأطلب جمال..

And when I awoke , I was alone,this bird had flown
So I lit a fire,isn't it good norwegian wood.

(أغنية غابة نرويجية - البيتلز)

****

بعد أيام جاءني جمال، جلس وقد أحسست أنه منفعل نوعًا ما ومضطرب، كنت قد أخبرته عن رغبتي في مواصلة العمل في البحث عن جديد، وحماستي التي أستيقظت بعد طول سبات، ولكني - ولوهلة - شعرت أنه يتهرب مني، مضت أيام بالفعل قبل أن يأتي، وها هو الآن جالس أمامي، وجمال ليس هو جمال..

سألته بقلق معجون بالخوف:

- جمال.. ماذا بك.. هل من شيء..

كان يكلمني، وهو يشيح بنظراته عني، قال لي بإضطراب:

- لا شيء.. كل شيء تمام..

لكنه أردف بنوع من التردد:

- فقط ليست لدي رغبة في العودة للمشروع، أعتقد أن قرارك بإيقاف المشروع قرار سليم.

- لقد كنت بالفعل يائس يا جمال، كنت أمرّ بحالة نفسية شديدة، لكن أقولها لك الآن، ما زال لدي أمل يراودني لهذا المشروع.

أجاب:

- أما أنا فأعتقد أنه لا فائدة من كل ما نقوم به، لابد من شيء أكثر جذرية يمنحنا الخلاص !

- خلاص..!! عن أي خلاص تتحدث !!

قال ببعض الإنفعال:

- الخلاص من كل هذه الآلام والمتاعب والمآسي، الخلاص من حالة الجمود والتخلف الذي نعانيه.. ألم يكن هذا كلامك.. ألم تقل أنه عالم قذر لا يحتكم إلا للقوة.. أي علم وأي قفز عبر الزمن وأي تاريخ وأي هراء.. نعم نحتاج لمشروع يخلصنا من كل مآسينا ومتاعبنا.. مشروع يحقق أحلامنا التي طالما حلمنا بها.

حينما إنتهى سادت لحظات صمت..

تنهدت تنهيدة حارة.. فكرت للحظات قبل أن أرد عليه بهدوء:

لا أعرف عما تتحدث عنه يا جمال.. لكني دعني أقل لك أنه لا يوجد مشروع خلاصي وطوباوي سينقذنا مما نحن نعيش فيه في لحظة واحدة كما تقول !!، هذا محض وهم.. وذلك لن يتحقق إلا بمشروع.. مشروع إصلاحي تراكمي طويل.. ضمن عملية «progress» طويلة.. لا تبدأ إلا بالعلم والتعليم والتنوير والمعرفة.. وأي مشروع خارج هذا السياق هو مشروع محكوم عليه بالفشل !!، أرجوك صدقني أحس أننا نقترب من الإجابة.. تعال معي لنؤسس لشيء ما، مشروع حقيقي كما أتفقنا.. ما نفعله سيغير العالم.. كما غير العلم العالم في أزمنة سابقة.. هل تسمعني..!!

نظر لي جمال، ودون أن ينطق بأي إجابة، كان قد غادرني.. لقد أصبحت وحيدًا..

****

مرّ شهران الآن منذ قدوم رانيا.. وشهر وبضعة أيام منذ تخلي جمال عني والبدء وحدي في إستكمال المشروع، الحقيقة إن البدء في المشروع من جديد أضاف لي الكثير، لملمة أوراقي من جديد، وإستعادة مناهجي البحثية، وإستخدام طرق جديدة للبحث مكنني من التقدم كثيرًا به، أما في نطاق حياتي، ففجأة، لم أعد أحس بالخوف أو التعاسة، لقد بدأت أحس بالحياة والدفء من جديد، لقد كان مجيء رانيا ودخولها حياتي سببًا في معاودة الفرح من جديد، وبالإضافة لمواصلة مشروع السفر عبر الزمن، فقد بدأت أهتم من جديد بقضايا الإنسانية، وأدخل وأتصفح الصفحات والمدونات التي

هجرتها، وأقرأ للكتّاب الذين لم أقرأ لهم منذ فترة، ورجعت لسماع الموسيقى التي أحبها، وبدأت فيما يبدو أسترجع شخصيتي، وأعود لسابق عهدي كما كنت..

نعم، لم يعد هناك مجال لتجاهل هذا الحب الذي بيننا، ولذلك كانت إحدى الليالي الصيفية الدافئة وقتًا مناسبًا للإعتراف بهذا الحب، بعد هذا الإعتراف سمحت أرواحنا لأجسادنا الإقتراب لممارسة أولى طقوس الحب، القبلات والأنفاس الدافئة التي تبادلناها في تلك الليلة لم تكن سوى البداية، وهكذا كان ما بعدها من أيام جنة أرضية بالنسبة لنا، كنا نتلمس طريقنا نحو عالم جديد، عالم نكتشفه لأول مرة، لم يكن الأمر معقدًا أبدًا، تم الأمر بكل بساطة، لا تعقيدات ولا خطط مسبقة ولا أي هموم تعترينا، أنزلقنا بشكل طبيعي نحو الحالة الأولى للحب الفطري بين الرجل والمرأة، منذ بدايتهم الأزلية، الحب الذي لم تلوثه العادات والتقاليد والأعراف والمعتقدات البالية، الجواب للسؤال الذي طالما سألناه، كيف نعيش ونحن في كامل النضج !!

حينما تُدفع بعاطفة الحب المقدس، تخرج كل طاقاتك، هل هذا هو السر الذي غاب عنا في سباق التحضر البشري، هل للجنس دور في تقدم الأمم..!!، لا أدري بعد.. كل ما أعرفه أن حب «رانيا» في طور المفعل، فك أسرار الخارطة الكونية لي، صرت مدفوعًا في كل أعمالي، صار للحياة طعم أفضل، وحتى عملي في المشروع صار يمضي بديناميكية أكبر.

أذكر ذلك اليوم الذي أقترحت فيه «رانيا» التواصل مع مختلف المراكز البحثية حول العالم. « العالم أصبح قرية صغيرة.. لماذا لا نتواصل معهم».

ربما يمكنك التشبيك مع العديد من العلماء المهتمين، ربما يمكنكم تكوين فريق عمل كبير هذه المرّة يوصلك إلى فك شفرة الزمن.

اليوم أصبحت وسائل الإتصال أكثر مرونة، وكل يوم تنهار الحواجز بشكل أكبر.

يومها دهشت من بساطة الإقتراح، نعم، لماذا لا نعمل معًا، لماذا لا نوحد جهودنا مع العالم، إنها معركة الجميع.

ولهذا، وفي صبيحة يوم الثلاثاء، الـ7 من شهر أغسطس، لم تصدق رانيا أذنيها وأنا أصرخ فيها.. « رانيا.. رانيا.. لقد فعلتها»..

لم تفهم رانيا المتعبة من النوم، والهارعة ببجامتها الصيفية الفاضحة سر صراخي مبكرًا..

« لقد فككت شفرة التاريخ.. لقد أزلت غشاوة الوهم من عن أعين العالم.. آن لهذا العالم أن يتخلص من بؤسه.. آن للإنسانية أن تولد من جديد»..!!

ـ ماذا هناك.. ماذا هناك.. أفهمني.. صرخت بها رانيا وقد رأت في أحشائي الفرحة..

« أعتقد أنني توصلت لطريقة للسفر عبر الزمن»..

قلتهـا صارخًـا بها، من فـرط السـعادة.. فلم تجـد رانيـا إلا أن تغطي فمها المفتـوح من فـرط الدهشـة والصدمة..

عندها.. وقبل أن نسـتوعب الموقف.. سـمعنا باب الشـقة يدق بكل قوة وعنف..!!

****

الفصل العاشر

جبل نبُّو

يرويه: حمزة

حانت ساعة المجد Ω حان وعد الخلاص Ω وها هو
التاريخ قد بدأ يوم نزلت من جبل نبّو Ω
من كتاب Ω كلينامن Ω

سلام عليك يا شهيدة الخراب..

سلام عليك يا شهيدة الصمت..

أنظر إلى الجسد المسجى فوق الطاولة، أنظر إلى جسدها الذي يخدعك فيتراءى لك أنها ما زالت نائمة، أرى إخوة المجموعة المتحلقة حول الجسد في طقسه الأخير تنعيها وتبكيه، أراهم جميعًا إلا جمال، كان يبكي وحيدًا هناك في زاوية مظلمة رافضًا القيام بطقس الوداع..!!، قال إنها لم تمت، وهذا الجسد مجرد خدعة !، هذا الجسد هامد !، وجسدها ليس هامدًا، جسدها ملئ بالحيوية والجمال، قالوا له: الجسد يبقى بعد الرحيل.. الجسد يصبح بعد الموت بلا قيمة !

***

سلام عليك يا من رحلت لكي نبقى..

يا من هويت لكي نعلو..

سلام عليكم يا أصحاب التضحيات..

***

تم إستدعائي الساعة 3 فجرًا، وهو بروتوكول قمت بإستبداعه في حالة سقوط الأفراد، وتلاشيهم، لكني لم أكن أتوقع أن يتم تنفيذ هذا البروتوكول بهذه السرعة، هل كنت أحلم بعدم سقوط ضحايا !!، حلم غير واقعي لكنه يظل هناك، كتصورنا أننا نقوم بعمل أسطوري، وأنه لا ثمن بدون ألم، ولا إنتصارات بدون تضحيات !، وهكذا

وصلت، وتم إستقبالي من المجموعة المتضررة، قام بإستقبالي مسؤول الطرف معلنا أنهم ينتظرونني لإجراء الطقس الأخير، الجسد مسجى في المنضدة في حجرة الإلتقاء، ولم يبقى إلا أن نقوم بطقس الوداع..

***

وداعًا لأننا لن نلتقي إلا في الأمنيات..

وداعًا سننسى..

ونبقى لنصنع مزيدًا من الذكريات..

***

كانت المجموعة قد أرسلت في مهمة إستطلاعية أخيرة قبل القيام بمهمتها في ساعة الصفر، مجموعة «مخربي شركات الإنترنت»، هذا ما كان إسمها، وهذه ما كانت مهمتها، لم تكن المهمة صعبة أو أخطر مهمات المجموعات المختلفة، في تحركها الأخير، ولكنها كانت مهمة مهمة جدًا وحساسة، قطع الإتصال للعدو مع عالمه الآخر، الموت التكنولوجي، مشهد القيامة الأخير الذي كان يتم الإعداد له ببطء، ولهذا كان عليهم حمل السلاح، أقدّر بالطبع الصدمة التي سيتعرّض لها أفراد هذه المجموعة حينما يرون المسدسات والأسلحة لأول مرة، ولكن فترة التدريب البسيطة كانت كفيلة بإنطلاقهم في مهمتهم الأولى.

لكن دائمًا هناك خطأ قاتل يحدث، دائمًا الأمور لا تسير كما تشتهي، وهنا يقع الضحايا، لم أقرأ التقرير المفصل بعد، ولكن مطاردة ما،

وتبادل لإطلاق النار في جنح الظلام، هو ما أسقط أول شهيد لمشروع «هرمجدون»..

«جوزفين كان إسمها.. اسم أول دم أريق من أجل الخلاص فسلام عليك يا شهيدة الصمت.. سلام عليك يا شهيدة الخراب..»

قلت لعادل مسؤول التثقيف بمفرده، بعد أن أكملنا طقوس الوداع:

«قم بحرق الجسد.. وأكمل إجراءات الوداع.. ثم إبدأ بشحن المجموعة من جديد.. لا وقت لدينا.. باقي على ساعة الصفر أيام..».

-وجمال سيدي.. ماذا سنفعل به..!!

-دع أمره لي.. أنقل فقط صلاحياته لطارق من جديد..

وثق أن الأمور ستكون على ما يرام..

آن للعهد الجديد أن يبدأ..

****

كنت أشبه بمن تلقى صدمة كهربائية أفقدته ذاكرته للحظات، كنت أرتعش وأنا أرى يدي ملطخة بدماء الرجل..

ظللت أصرخ: إنه هو.. إنه هو..

كان والد (هدى)، لن تغفر لي

لقد إنتهى كل شيء..!!، لقد إنتهى كل شيء..

فجأة..

دخل رجل للمكتب بدون أي مقدمات، تقدّم إليّ وسط ذهول كل من حولي، ظهر كالقدر، كأنه مرسل، كأنه يتلقى أوامر من السماء، اقترب منيّ، ووضع ورقة في يدي قائلًا لي بصوت آمر:

- ما حدث قد حدث.. إنطلق الآن للعنوان الذي في الورقة.. أترك كل شيء وإنطلق، وأستعد غدًا صباحًا للسفر إلى الأردن، إنطلق الآن ولا تأخذ معك أي شيء.

«كأنني كنت في بئر سحيق.. وأنتشلني أحدهم»، لم أقاوم أصلًا، نفذت أوامره كالمنوم مغناطيسيًا، وفي اليوم التالي، كنت برفقته نقلع إلى عمّان..

حاولت أن أغالب في الرحلة ضعفي، حاولت أن أسأل، لكنه كان دائمًا ما يقول لي:

- إطمئن.. أنا هنا لأنقذك مما أنت فيه..!!

لكنه على الأقل أخبرني بإسمه..

كان إسمه.. «خضر»..

****

في البداية أحتجت لشهل كامل لكي أخرج من كآبتي، وفكرة لوم نفسي على فقدان كل شيء، طوال هذه المدة، لم نكن نفعل شيء سوى الأكل والنوم والتنزه في الشوارع، وخلال النزه الطويلة على القدمين،

كنّا نـدردش في مواضيع عامة، لكنه كان دائـمًا ما يقول لي:

ـ أنـت لم تخـسر شيء.. بل بالعكس، أنت الآن فقط كسبت نفسك، مـا حـدث في حياتك الماضية، لم تكن مسـؤولًا عنه، ما حـدث لك كان أكبر من طاقتـك كبشر..!!

وعـبر الأحاديـث المختلفـة مـع «خـضر»، بـدأت أعـي مـا حصـل لحيـاتي.. ومـا يحصـل في الحيـاة بشـكل عـام، عرفـت بفضلـه تحديـد المشـكلة، وتشـخيصها بشـكل سـليم، ولم أعـد ألـوم نفـسي..!!

«التسـلط اللانهائـي.. تحكم المـال بالعالم.. فسـاد الدولـة وطغيانها.. كلهـا أدوات صنعت البؤس لعالمنا.. وعوامل شـوّهت القيم والمفاهيم الإنسانية»..

« لابـدّ مـن إنقـاذ هـذا العـالم المتهالـك.. لابـد مـن أن تسـقط هـذه المنظومة بأكملهـا.. لابد من تحطيم هذه الأسـوار القبيحة فوق رؤوس المنتفعـين وأباطـرة المال والجاه والسـلاح، وإنقـاذ الكادحين من جحيم الإستغلال»..

الذنـب كبـير يا حمـزة.. الذنب كبير ولم تعد الإنسـانية تسـتطيع حمله، لذا لابـدّ لها مـن مخلِّص..

أنـت يـا حمـزة من سـتكفّر عـن ذنوبـك.. أنت من سـتنقذنا يـا حمزة وتكـون المخلّص..!

****

في بداية الشهر الثاني بدأت رحلاتنا لجبل نبّو..

مع قليل من الزاد، والعديد من الكتب والأوراق، صعدنا أنا وخضر إلى جبل نبّو، مسيرة 41 كيلومتر من عمّان أرضًا، ومسافة 1160 مترًا فوق سطح الأرض، نقطعها على الأقدام لنغيب هناك ونمكث في قلب الجبل ما يقارب الستة أشهر..!، حينما ينتهي منّا الزاد، كان خضر ينزل إلى العمار ليأتي لنا ببعض الزاد الذي يكاد يكفي رمقنا، أما النوم فقد كنّا ننام على الأرض ملتحفين ببعض جلود الماعز التي وجدناها نافقة في نواحي نائية من نواحي الجبل.. وعلى مدى ستة أشهر، كان التشكل البطيء لكن الصلب لشخصيتي الجديدة يمضي بثبات كبير، عبر القراءة والكتب والنظريات ووجهات النظر، 6 أشهر كاملة كان خضر ينحت فيَّ، عبر تجربة إنعزالية روحية قلّما تحدث، ورويدًا رويدًا، أصبحت أنهض كل يوم صباحًا على رؤية جديدة للكون، رؤية جديدة للعالم، وعبر أفق جديد السماء، وملعبه الأرض، إكتشفت أنني يجب أن أعيد رسم خارطة البشرية من جديد، يجب العودة للأصول الأولى للإنسان، بعيدًا عن كل هذه الإختراعات والتقنيات البغيضة، التي حولت الإنسان لما يشبه الآلة، بعيدًا عن هذه الحضارة الزائفة التي قتلت المشاعر الإنسانية، وحولتها إلى ما أشبه المجسمات البلاستيكية، بعيدًا عن كل هذه القوانين والتعاملات المعقدة التي قيّد الإنسان نفسه بها، بعيدًا عن الديانات والأيدولوجيات والأفكار السامة التي سممت الفكره، لابدّ من تدمير كل شيء.. لابدّ من نسف كل شيء،.. والعودة من جديد للفردوس البشري الذي تركناه.. لابدّ من نسف كل

اللوبيات الفاسدة والحكومات والمنظومات المتحكمة فينا، لابد من تدمير الطبقات الحاكمة والتجار المتعفنين، والقيادات الخانعة.. لابد من الثورة المقدسة..!!

بعد 7 أشهر من بدء التجربة، قال لي خضر: حان وقت رحيلي!!، لم أصدق في البداية الجملة التي قالها..» حان.. وقت رحيلي»!!،هكذا.. مرة واحدة.. وإلى الأبد.. لن أراه مرّة أخرى ولن أسمع عنه..

كنت في تلك المرحلة قد بدأت حواسي ترهف، وكنت أستمع لصوت الذبابة وهي تحط بأقدامها على بعد عشرة أمتار، كنت أرتدي أسمالًا بالية كراهب، وكان شعري يبدو ككهنة الجرمنت، وأصبح بصري يرى ما تراه المخلوقات الأخرى، وفوق هذا، لم أحس به حين رحل، نهضت مفزوعًا عندما أنبثق الفجر، ظللت أركض لأعلى قمة في الجبل، لكن الأفق كان خاليًا..!!

«الآن ستكمل التجربة وحدك».. هكذا قال لي.. «منذ الآن لن يشق أحدًا طريقك غيرك.. لتكون أنت المخلّص..!!»، لذا وعبر الليالي اللاحقة، سيبدأ «كليمن» في التكوّن.. كتاب المنظمة المقدس، لذا وعبر ليالي مرهقة، كنت أنهض مبللًا بالعرق، وخائرًا من فرط الجهد والإرهاق، لأجد بضع صفحات بيضاء، قد أسودّت وشطبت مرارًا وتكرارًا، لو كان خضر هنا لكان ملأه الفخر، وفي نهاية الشهر التاسع، كانت لديّ مسودة مكونة من (600) صفحة، حزمتهم في حزام من الجلد، هو وما تبقى من حاجيات لي، وقررت

النزول أخيرًا من الجبل !!

لا تؤمن بميكي ماوس Ω ولا تشتري حاجياتك من وول مارت Ω ودع قلبك يرحل من مدن الطاعون Ω وقاطع ثلاثة Ω المال والفردانية والإنتخابات Ω وأستعدوا لبناء مملكتنا على أنقاض المدينة Ω قوم نحرق هاي المدينة ونعمر واحدة أشرف Ω فنوها مرارًا وتكرارًا Ω من أجل حضيض العمال الجاهلون Ω المتمرغون في طين المجتمع الاستهلاكي Ω من أجل قلوب السكارى المغيبون Ω عن من يحتكرون المعرفة Ω من أجل العرق الذي ينصب سدى Ω

لا تصنع لك رمزًا من ورق Ω ولا صورة هوليودية زائفة كسماء الرب Ω إصنع تابوتًا لك وحدك Ω وعش على حلم الطوفان Ω ما لك ليس لك Ω وما لهم لن يكون لهم Ω المُلك ليس لأحد Ω وجنودنا يوم تنطبق السماء على الأرض Ω سيخرجون يوم نبعث أحياءً Ω بعد ممات Ω

لا تحلف باسم الوطن Ω فالوطن خدعة Ω والتقدم خدعة Ω والجنة خدعة Ω لسحقًا لعالم يحفظ فيه الأطفال أسماء وجبات الكنتاكي والماكدونالدز Ω كما يحفظون أسماء آبائهم Ω ولا يحفظون أسماء أنبياء الحرية Ω ولا يحفظون أسفار المناضلين الذي يموتون عبثًا Ω وينامون لكن Ω في حضن القصص الرديئة Ω

أذكر يوم هرمجدون لتقدسه Ω ألم ترى كيف خلقنا هذا اليوم Ω وحملناه كما تحمل الأم الحياة Ω هو يوم المجد Ω يوم الإنقلاب على آفة الإنسان Ω يوم الدمار لهم Ω ويوم البداية لنا Ω فلا تحزن Ω ولا تيأس؟ ولا تحبط؟ وأشدد أزر أخاك ولو فقدته؟ وعش مع المجموعة لا وحدك Ω تنال دفئها وتنال الطمأنينة Ω

ما بعد النهاية إلا بداية جديدة Ω الدوران سيستمر Ω موتك لا يعني إلا حياتك

Ω وإتحادك لا يعني إلا ضعفك Ω فلن نقبل أن نكون قردة فضاء أبدًا Ω لن نقبل بأن نكون مجرد تروس في آلة الأجر Ω فإستعد للصراع Ω الذي فرض عليك برغبتك Ω وإستعد لقطع شرايين الدولة التي صنعت Ω أستعد لدفع ثمن تحررك من عبيدك Ω وأشيائك Ω وفضلاتك Ω أقتل كل ما فيك Ω لتصبح كأي شيء آخر Ω بلا أسم لكن حر Ω

أكرِم أبناء المجموعة Ω أحببهم لكن بدون أن تتعلق بهم Ω تذكرهم لكن على وعد بأن تنساهم Ω ولا تفكر في ماضي له اسم Ω ولا تحلم بمستقبل وحدك Ω ما جاء في كلينامن أتلوه وأحفظه Ω وطبقه على رؤيتك للعالم Ω فالعالم بدون كلينامن لا معنى له Ω والحياة بدون المجموعة لا جدوى لها Ω

حانت ساعة المجد Ω حان وعد الخلاص Ω وها هو التاريخ قد بدأ يوم نزلت من جبل نبّو Ω وها هو الطوفان يغرق كل آفات البشر Ω ها هو العالم يحترق من أجل الخلاص Ω فطهّر فأنت المتبقى Ω وأنت المتلقي Ω لكلمات الشعب Ω

****

حانت لحظة الحقيقة، منذ بدء تشكيلي لمنظمة «هر مجدون»، وأنا أنتظر هذا اليوم، منذ بدأت لحظة التبشير بأفكاري، برؤية الجبل، بكلمات كلينامن، وأنا أنتظر هذه اللحظة، منذ أن آمن بي أول شخص، وبدأ المؤمنون يزدادون.. من شخص إلى أثنين إلى ثلاثة.. حتى العشرات.. منذ أن بدأنا تكوين المجموعات المختلفة.. وتدريب رؤسائهم، مجموعة تدمير الشركات.. مجموعة فصل شبكة الإنترنت، مجموعة الجهات السياسية، مجموعة الإمداد، مجموعة الدعم، مجموعة

الإقناع.. مجموعة السيطرة.. مجموعة التجنيد.. مجموعة التخطيط.. كلما زادت الدوائر.. كلما إبتعدت عن الصورة.. وكلما إبتعدت عن الصورة.. كلما زاد التقديس..

كانت الفكرة هي تكوين دوائر منفصلة، كل مجموعة تعمل بسرية وإنعزالية عن المجموعة الأخرى، لا أحد يعرف مهام أي أحد آخر، كل مجموعة تعمل بتراتبية مقررة يربطها بالمجموعات الأعلى خيط رفيع غير منظور، كانت هناك عشرات المجموعات التي تعمل في صمت، دون أن تعلم ماذا يصنع الآخر، كان هناك خلل كبير في الإدراك بالفعل، فأنت ترى الجزء الخاص بك، دون أن ترى الصورة الكاملة، لكنه يشعرك في نفس الوقت بوجود هدف أسمى خارج إدراكك، وهذا ما يجعلك تشعر بعظمة هذه الخطة، وكُبرها الذي يتعدى فهمك، عمومًا كانت هذه الإستراتيجية تساعد على سير الخطة بالفعل، واستمراريتها دون أي منغصات.

كانت هذه الفكرة من الذكاء بحيث تمنع إختراق وأكتشاف أي مجموعة أو تحركاتها، حين تمّ سؤالي من المقربين منّي عن صاحب هذه الفكرة قلت «خضر»، قلت ذلك كنوع من الإحتفاء منّي لغيابه، كنت أحاول أن أكرّمه وأمجده وأستحضر حضوره، لكن ذلك خلق مني شخصية أسطورية أكبر، جعلني ذلك الشخص التي يتلقّى إلهامه ووحيه من المجهول.

لكن «خضر» غير موجود، وأبنائي يتلون في هذه اللحظات، الفصل الأخير من كتاب «كلينامن»، إستعدادًا للبدء في مهمتهم:

« في البدء كانت كلينامن Ω من فوق جبل نبّو المقدس Ω يوم ظهرت النبوءة المعرفية Ω يوم أنكشف السر Ω من صاحب الحكمة Ω من صاحب الاسم اللون Ω من رسول الأمس واليوم Ω يومها عرفنا الشر Ω ويومها عرفنا النصر Ω فأخرجوا يا أبناء الجسد الواحد Ω يا أبناء الإنسان Ω يا أبناء الأرض Ω أخرجوا التكسروا القيد Ω أخرجوا التبنوا المجد Ω وأطلبوا الوداع Ω أطلبوا الوداع Ω »

الآن يخرجون أبناء هرمجدون.. يخرجون جماعات جماعات.. في وقت واحد.. عشرات المجموعات تخرج من مواقعها.. في لحظة واحدة.. على وجوههم الحياة والموت.. على وجوههم الفرح والبؤس.. على وجوههم اللذة والألم.. الآن ينتشرون.. يزحفون ما بين خيوط الليل..وساعات الفجر الأولى..

****

يومها، ظللت أفكر، ما هو الخطأ الذي أرتكبناه حقًا..!!، ما هي الحقيقة المنطقية التي غابت عنّا جميعًا، وما هو الوهم الذي أبتلعناه، أين كانت الخطيئة، وأين كان الذنب، ولماذا يهزم المؤمنون بالقضايا النبيلة، ولماذا يستمر التيه لسنوات طوال..!!، في تلك اللحظات لم نعد قادرين على الفهم !!، لا فهم وقت الألم.. فالأمر كان أشبه بتناثر شظايا، جراء وقوع تمثال بلوري من يدك، يستحيل معها تجميعها من جديد، لقد تهشمنا بالفعل، لقد سقطنا بقوة، ومنذ الساعات الأولى لبدء العملية، هزمنا بقسوة، فضاع كل شيء، وتشتت كل شيء، ورجع كل واحد فينا في لحظة، لتفكيره الأناني قبل أن نصبح واحد،

وقبل حتى البداية..

«هناك هجوم مضاد علينا سيدي.. نحن مكشوفين.. إننا نتعرض للإبادة»..

لم أصدق ما وصلني من معلومات من مجموعة الإتصال، ما الذي يحدث، أخبرني..

«لقد فقدنا عنصر المفاجآة، لقد كانوا يعلمون بهجومنا، إنهم يفككون قنابلنا، ويلاحقوننا، ويحمون منشآتهم جيدًا»..

«الدولة تدافع عن بقاءها.. الدولة تدافع عن وجودها»..

«هناك بالتأكيد خيانة سيدي.. المهمة مستحيلة.. مجموعة الشركات فشلت وفقدت بعض أعضائها، مجموعة قطع الإتصال تنسحب كذلك، وفقدت عضو آخر لديها، كل المجموعات تتلقى ضربات قاسية وتنسحب، الكل مشتت.. الكل يعاني»..!!

هناك من أخبرهم متى نتحرك، هناك إختراق حصل !!، لكن كيف.. مستحيل..!!، لم يكن من المفترض أن يكون هناك خطأ !!، كانت هذه الرسالة معدة لتكون أمل البشرية لمئات السنين، كانت لهذه النظرية أن تظل !!، أن تكون خلاص الإنسانية !!، كان لهذه العملية أن تكون الصراع الأخير، والدمار الأخير، قبل السلام الأبدي !!

إنقطع الإتصال..

لم أشعر بمرارة كما أشعر بها الآن، لم أشعر بألم كما أشعر به الآن،

ألم ومرارة تفوق حمل الجبال، غضب وحقد وهزيمة، غضب وحقد وهزيمة، كنت أرتعش.. كنت أشبه بمن خارت قواه نتيجة صدمة كهربائية..

فجأة..

« إتصال لك سيدي»..

عندما رفعت السماعة.. كان صوت خضر !!

قال لي دون مقدمات:

ـ أعرف من أفسد خططك..

ـ من..؟!

ـ شخص يدعى «أحمد»..!!

الفصل الحادي عشر

أضحية

يرويه: هاني

لم يعد بإمكانك مناداتي بهاني بعد الآن.. إسمي الآن أصبح «أبو قتادة»..

قد يبدو لك الاسم مستهلكًا، وسخيف، لكنك فقط لأنك لا تعرف أبا قتادة، لا تعرف ماذا يمثل في التاريخ الإسلامي، لا تعرف ماذا يعني أبو حذيفة، وأبو عبيدة وأبو دجانة وأبو.. وأبو.. تسخر بل وقد تظن أن الأمر مسلّي وطفولي ومضحك، ولكنه عكس ذلك تمامًا، الأمر جدّي تمامًا، إنها لعبة سايكولوجية تجعلنا نرتبط بالماضي الذي نحاول إعادته، نعيشه بكل تفاصيله، نصبح نحن شخصياته التي نحبها، والتي تعلقنا ببطولاتها، لنكرر مجدها في العصر الحديث، إنها لعبة السفر عبر الزمن، التي طالما سعى الإنسان إليها، ولكن بشكل عكسي، فإن كنا غير قادرين على العودة إلى الماضي، فلماذا لا يأتي الماضي إلينا..

وكما يوجد عصر نودُّ أن نستعيده من غياهب التاريخ، نحييه ونبعثه من جديد، فهناك ذكريات لابد أن نحافظ عليها للأبد، لذا كان لابدَّ لي من إسترجاع «أروى»..

ما زلت للآن أذكر لقاءاتي معها، وجلساتنا، وأحاديثنا، ما زلت أذكر عيناها، وشعرها، ويديها المتعورقة، الشنطة التي كانت تحملها، الحذاء الوردي الذي يناسب قدميها الصغيرتين..

كل هذا أتذكره.. كل هذا كان يؤنسني في كلِّ لحظة أمضيتها في السجن..

لم أندم، ولم أحاول منع نفسي من التفكير بها لأنني تدينت، بل إن هناك فكرة خاطئة عن علاقة التدين والمرأة، والعديد يفترض أن «المتشددين» كما يدعوننا، يعيشون حالة من الإنفصال والتخوف من المرأة، لسنا رهبانًا ولا عبّاد قبور، ولا نعيش حالة من التصوف والحب الأفلاطوني..

إن لم تكن الشهوة هي التي تحرّكنا فمن الذي يفعل..

إننا ربما نكون أكثر شهوة ورغبة في المرأة، الشهوة ليست عيبًا في الرجال، وهو اقتداءً بالسلف الصالح، وهو من شيم الصحابة، ولكن في ظل فلسفة وأطر نحن نعرفها ونعلمها، ووفق شروط وقواعد للمتاع والتمتع، في ظل قواعد إسلامية واضحة ومحددة بطول ذكرها وشرحها..

هاني..؟!، من هاني؟! لا وجود لهاني بعد الآن !

من دخل إلى السجن، ليس هو نفس الشخص الذي خرج منه..

الآن أنا أبي قتادة، أنا الآن فارس هذا العصر الحديث، من حولي رجالي اللذين يمتثلون لأمري، لم أعد مجرد فرد من أفراد الجماعة، في سلّم القيادة، أصبحت أميرًا لولاية كاملة، أصبح لي طلاب علم يأتون لأخذ العلم يوم في الأسبوع، أصبح كلامي إلهامًا في أماكن حلّي وترحالي، حيث تفرش السجاجيد الحمراء، وتطهى أشهى الولائم في إستقبالي، كنت أنظّر وأنظّر وأنظّر، وأعطي إجابة لكل سؤال شرعي، فلا وجود لدينا لأي مستعصى، فلكلّ سؤال جواب،

ولكل مشكلة حل، ولكل تفصيلة في الحياة نمط معين لابد أن يكون عليه، فنحن لدينا سر السعادة، في الحياة الدنيا والآخرة، لدينا اليوتوبيا الأرضية مفسرة ومفصلة في كتاب الله وكتب السنة..

ستبين لنا الدنيا، وستدنو لنا الأرض، يا لهذا المجد..

لكن كان ينقصني شيء واحد.. «أروى»..

في الحقيقة، لم يكن هناك شيء يمنعني من الحصول عليها، أروى، كان يمكنني جعلها تمثل أمامي في لحظة، لكني فضلت أن أستعمل اللين في البداية، كان رجالي قد جلبوا كل المعلومات التي أحتاجها عنها، وبشكل تفصيلي، وقد عهدت بهذه المهمة لبعض المقربين من رجالي فقط، لا أحد يريد أن تنتشر معلومات أن أبي قتادة يلاحق فتاة..

إذن فأروى قد أتبعت حلمها الذي كانت تسر لي به عندما كنا في طور الحب، في ذلك الوقت كان حلمًا، أما الآن، فهو ضلال ضلال، ويجب منعها عنه، لكن لن نستخدم العنف في البداية، «ادفع بالتي هي أحسن».. هذا هو ديننا الحنيف..

«سيحل عليك غضب الله يا أروى.. ستندمين»..

لكنَّ محاولاتي في محادثتها وثنيها عن ما تفعل لم يجدي..

لم أفهم كيف تفعل هذا بي، انا الشخص الذي أحببتها حتى النخاع، لماذا لا تفهم أنني أحاول ان أنقذها مما هي فيه، هي لا تفهم شيئًا، ولا تعرف مصلحتها، هي فرد كغيرها من العوام، لم تتلقى

التعليم الشرعي الكامل، ولم تصل للنتائج التي وصلنا إليها نحن من فهم وتعلم، هي ابنة لهذا المجتمع الجاهلي، لم تصل إلى الهداية الكاملة والنجاة، إلى الفهم النهائي لحقيقة الدنيا، وصحيح الدين، للحقيقة الناجزة، بالفعل.. صدق من أسماكم.. «ناقصات عقل ودين»..

ولكن لن أتركك يا أروى، لن أجعل شياطين الإنس تأخذك مني، لن أسمح لهذه التلة الفاجرة التي تتبعينها وهذا المجتمع العلماني الفاجر الفاسق بأن يبتلعك، والذي بدأ يغويك ويبعدك مني، حبّي لك وخوفي عليك يدعوني لإنقاذك من جهنم والدخول بك إلى الجنة، ولو بالسلاسل، هذا هو دوري، هذا هو دورنا نحن حفّاظ الدين، هداية الظالمين..رجالي ينقلون لي ما يحدث معك لحظة بلحظة..حان وقت التدخل النهائي.. بمشيئة الله..

أمرت رجالي بخطف حاتم، وحبسه، وإغتصابه، ثم تهديده بالموت إن لم يلتقي بأروى ويخبرها بأنه لا يريدها، وأنه يريد الإنفصال عنها وهجرها، وأنه لو نفذ ما قيل له، فإنه سيكافأ بالسفر خارج البلاد، ولكن بعد أن نتأكد أنه نفذ إتفاقه، وأنه خرج من حياة أروى للأبد.

ما حصل لحاتم شيء مؤسف، ما حصل لحاتم كان مؤلمًا حتى بالنسبة لي.

لكنها خسائر صغيرة تبدو مقبولة، من أجل الفوز بالجائزة الكبرى..

هذه هي عقيدتنا الأثيرة، وهذا هو سرّنا الصغير..

«التضحية».. ذبح القرابين من أجل التقرب إلى الله..حتى لو كنا نضحي بأحلام الآخرين..بغضّ النظر على أننا قد نضحي بحياتهم ذاتها..!!وهكذا رجعت أروى إلى الحظيرة.. حظيرة الحق..

لا شيء حقًا، يستعصي على أبو قتادة، أبو قتادة لم يعد هو هاني، هاني ضعيف، أبو قتادة قوي، هاني يخسر أصدقائه، أبو قتادة يستر أحبائه، هاني لم يكن له هدف، أبو قتادة له هدف، جعل الجميع سعيدًا في حظيرة الحق..ولهذا فإن التغيير لم يشملني أنا فقط، فقد شمل كلّ من حولي..

في البداية وجدت صعوبة كبيرة في إقناع الوالدة بالخروج من الحارة، والذهاب إلى منطقة أكثر رقي، ربما كانت هذه أكبر الصعوبات فعلًا، فالوالدة التي أصبحت «حاجّة» بسببي، كانت تنظر لي بإستغراب وريبة في البداية من التحولات التي راعتني، اللحية، الجلباب، الملابس البيضاء، بعض ذكريات أبي الفيحاء الأليمة ما زالت تلقي بظلالها السوداء على قلوب العجائز ممن لم يدركوا ويفهموا هذه الأمور.

لكن ما لم أكن أفكر فيه، أن الحارة بالنسبة لأمي كانت تمثل الذكريات التي من الصعوبة نسيانها..فقد عاشت فيها أيامًا حلوة.. كما عاشت أيامًا قاسية..

أمرّر السواك بين أسناني وأتفكّر..

أمي كانت ابنة تاجر معروف في الحارة، كانت ابنة مدللة، بإعتبارها

وحيدة أباها، وعاشت أجمل مراحل طفولتها، كأميرة في عصر كانت الحارة هي المدينة التي ترسوا فيها سفن العالم، كانت الحارة في ذلك الزمن هي مركز البلاد ومدخلها، فيها تحط الملابس الفاخرة، والذهب والحلي، وفيها كان أكابر القوم يتوافدون.. كلّ هذا قبل أن يقتل أباها بطعنة خنجر حاقد ومسموم.. طعنة واحدة كلّفتها كل شيء، حولت جنتها إلى كابوس، ذهبت الثروات وتبددت، خسرت التجارة، وبدأت تلاحقها وأمها الديون، ثم توفّت أمها من الحسرة، فوجدت نفسها بين أحضان رجل غريب..

لكن حياتها لم تكن كلّها كطعم الخروب، فالله له تقاديره ورحمانيته، فالرجل الغريب لم يكن سيئًا على أيتها حال، كان رجل صوفي درويش، تزوجها بعد فترة تصوف وزهد كبيرين، لتكون له زوجة، ومعينة في الحياة، ومنه أنجبت.. شقيقتي «رانيا»..

عاشت أمي.. كما يقال.. أيام سعيدة وهانئة مع ذلك المتصوف الزاهد، كان بالكاد يجلب لها ما يكفي يومها من مأكل وشراب، ولكنها كانت تحمد الله ولا تتمنى زوال هذه النعمة وراحة البال، لكن لله تقادير وتصاريف.. ففي يوم صافي بشمس مشرقة، خرج زوجها الصوفي ولم يعد.. تنوعت الروايات، فقد قيل أنه إلتحق بالمجاهدين لمحاربة الإستعمار فمات، وقيل أنه إلتقى بأمرأة جميلة يفوق جمالها جنيات البحر، فركب السفينة معها ورحل إلى بلاد الفرنجة، أما أغلب الظن، فقد قيل أن الصوفي حن إلى الخلاء والدروشة، فجنّ جنونه في أحد الصحارى، وأعتكف.

لم يكن لزوجها الزاهد أصدقاء أو أهل أو أقارب.. ولهذا ظل أمر إختفاءه لغز، كما كان أمر مجيئه.. لم يكن هناك دليلًا واحدًا على وجوده في هذه الحياة، إلا قطعة لحم تبلغ من العمر سنة إسمها «رانيا»..

بعدها بثلاث سنوات جئت أنا.. بعد صبر طال، جاء أبي ليتزوج أمي بشكل ما، ورغم الزواج الأول، فأمي كانت ما تزال شابة يتمناها الرجال، أما أبي فقد كان مجرد عامل قدِم للحارة لطلب الرزق، لم يكن أبي ذو حسب ولا نسب، كان شابًا يود الإستقرار، ولا أدري ما الذي جعل أمي توافق على طلبه للزواج منها، بعد أن لفّ عليها كثيرًا في زنقة السوق..

الملخَّص، ان أمي عاشت فترة جميلة أخرى مع أبي، وجئت أنا، وجاء معي الخير، هاني، كانت الحياة هانئة بالفعل، حياة إستمرت سنوات، وكان الخير يزداد، وكانت تجارة أبي وأعماله في إزدياد، وجاء العرض يومها من أبي، لنترك الحارة..

لكن أمي قد رفضت.. وخلاف كبير قد نشب ساعتها.. ومنذ ذلك الحين، وأبي كان يغيب كثيرًا عن البيت.. كان يقضي أوقاتًا كثيرة خارج الحارة، وأصبح لا يأتي لينام معنا كما العادة..

وفي يوم من الأيام، وحينما كنت أنا عائدًا من مدرستي الإعدادية، وجدت أمي تبكي لوحدها، كانت رانيا نائمة، وعندما رأتي أمي، أحتضنتني، وقالت بصوت منكسر:

ـ أبوك لن يعود مرة أخرى يا هاني، أنت رجل البيت الآن.

وبالفعل، بعد أيام معدودة، وصلت ورقة الطلاق إلى أمي، أبي قد تزوج أخرى من المدينة وتركنا في الحارة وحيدين..

وها أنا أكرر الماضي مرة أخرى، أكرر الطلب الذي طلبه أبي من أمي فرفضت، وها أنا أعيد ذكريات هذا الطلب الأليم، لكن أمي هذه المرة لم ترفض، ربما لأنها لا تريد أن تخسرني أنا أيضًا..

****

رانيا كانت كأمي، لم تخضع بسهولة للقواعد الجديدة..

في البداية، كانت فرحة بالتغييرات التي شهدتها على المستوى المادي، الإنتقال للبيت الجديد، السيارة الجديدة، والهدايا المتنوعة التي كانت تحصل عليها، لكنها ربّما أحست بتحركاتي المقصودة لتغيير نمط حياتها، الفتاة كبرت ولم تعد صغيرة، وأخت أبي قتادة لا يفترض بها أن تكون بهذا الإنحلال من الدخول والخروج بدعوى الدراسة والحرية..

لذا فهمت رانيا أنها قد دخلت في معركة معي..

«ألا لعنة الله على هذا الإنترنت.. صنيعة الغرب الفاسد»..

حرية المرأة، وما هو إلا إنحلال لها، حقوق الإنسان، حرية التعبير، سماع الرأي الآخر، والتعايش مع الآخر، كلها مصطلحات صيغت لضرب العقيدة ومحاربة دين الإسلام، «وقرّن في بيوتكن»، تنزيل

حكيم من رب كريم، وهل نحن نعلم أكثر من الله، لا محاجة ولا جدال، مع القرآن والسنة، لا إختلاف مع الدين، أو إجماع الأمة، فمن فارق الجماعة فأقتلوه، ومن فارق دينه فأقتلوه، هذا هو ديننا وقواعده، التي تمنع إختلال العالم وإنهياره، هذه هي السنة الإلهية التي لا جدال فيها، هذه هي القواعد التي إذا غيرناها ينهار علينا سقف الدنيا، ونجاة الآخرة..

لكنّ رانيا كانت قد ورثت.. «كساحة الراس»..لذا كان لابدَّ من الحفاظ على أسرتي الكريمة من الإنحلال، أجبرتها على عدم الخروج إلاّ معي، «ولي أمرها»، أتريدين التعلّم؟!، جلبت لها مدرسة خاصة في البيت، رميت لها كل ملابسها الغير شرعية، قطعت الإنترنت، وألغيت كل قنوات الدعارة العربية والغربية، وحينما صرخت في وجهي.. أعملت فيها الحزام ضربًا..«إنت مش خوي.. مالكش علاقة بيا»..ثم بصقت عليّ..!!

ما تلا ذلك، كانت أيام سوداء لا داعي للحديث عنها، فقط أذكر أن أمي العجوز كانت تبكي في صمت أحيانًا، ربما تبكي حتى يهدي الله أختي، أو ربما مشفقة عليها من القسوة التي كنت أتبعها معها، لكن لم يكن ذلك إلا لمصلحتها، وربيِّ شاهد علي..

وبعد صراع لمدة ثلاثة أشهر طوال، منَّ الله عليا بفتح من عنده، وجاءتني تطلب المغفرة، وتقول أنها ستكون كما يريد الله ورسوله، الحمد لله، وبدأت رويدًا رويدًا تتلقى العلم الشرعي، وتصاحب فتيات الجماعة في المسجد، حتى إنها أصبحت على صداقة جيدة

بعد أن عرفتها على أروى، وأصبحتا هما الأثنتان تعينان بعضهما على قسوى النفس.

ووسط هذه المشاكل العائلية البسيطة التي ألمت بي، إنشغلت قليلًا على العمل مع الجماعة، كنت منذ يومين قد وصلتني رسالة بوجود فتح جديد يخطط له، سيضاف لفتوحات الجماعة، لذا وجب القدوم والاجتماع..لذا أرتديت أجمل جلابية لدي، وذهبت لملاقاة أمير جماعتنا..الشيخ العلامة.. وأمير جماعتنا.. مولانا الأمير «خضر»..

عند جلوسك في حضرة الأمير، ستشعر بتلك الرهبة التي أحسها كلما أجلس في حضوره، عندما دخلت عليه لأول مرة، قبل أن أصبح «أبي قتادة» حتى، كان هو جالسًا فوق ذلك الكرسي المرصّع بالحلى، والمبطن بالجلود، كان كل من في مجلسه يبدون كمشاعل مطفئة وسط لوهجه الغريب الذي ينبعث منه، فيه سر إلهي لا شك، يقال أن علمه فاق كل علماء الأمة، وزيارات الرسول له في مناماته فاق كل عدد، حينما دخلت لأول مرة، نظر لي بعينيه الخضراوتين، وقال لي بلهجة فخمة:

ـ «اقترب يا هاني»..

وكأنني بعدها دخلت في أعلى شعب الإيمان.

«سيكون لك شأن كبير يا هاني.. بك سيتغير تاريخ الأمة وتحقق أمجادها»..

فقت من سرحاني على صوته..

«اقترب يا أبي قتادة».. قالها لي، وعلمت أن الأمر جلل..

ـ ما الأمر يا أميرنا..

قال لي بصوت حازم ومؤلم:

ـ «حان وقت التخلص من الطاغوت»..

الله أكبر.. الله أكبر.. صُحت بها فتعالت الصيحات من حولنا، الله أكبر.. الله أكبر، كم كنت أنتظر هذه اللحظة، للحظة أرتعش جسدي، وأحسست برهبة الخطوة..

إزاحة طاغوت الدولة، الرجل الذي عذّبنا وقاومنا، وقاوم قيام دولة الإسلام في هذا البلد، بإزاحته.. ستسقط أكبر عقبة لنا للسيطرة على الدولة، وسنبدأ في التغلغل فيها، والسيطرة عليها برجالاتنا، ورؤوس أموالنا التي كان هذا الطاغية يمنعهم من مشاركته في مقاليد الأمور..

سقوطه يعني بداية سقوط الدولة الكافرة، والبدء في عصر الدولة الإسلامية، دولة الخلافة..

الخطة لم تبدأ منذ هذه اللحظة، الخطة بدأت منذ عقود..

الهدف: هو توحيد المسلمين في دولة الخلافة الإسلامية، لبناء الأمة، وضرب الكفار، لنصبح سادة العالم كما كنا، وتعلو راية الإسلام فوق جميع الأمم..

الخطة: هو تدمير وإحلال ما يعرف بالأنظمة، ودول ما يعرف

بدول سايكس بيكو، فنحن لا نعترف إلا بدولة الإسلام، لذا فإن عدونا الأساسي هي الحداثة وكل منتجاتها.. الدولة والمواطنة والقوانين والدساتير الوضعية.

ولكي تسيطر على أي مجتمع، عليك بالتركيز على أهم ركيزتين، التعليم والإعلام.

التعليم يتم إستخدامه لإعادة هندسة المجتمع وفق القيم التي نريدها، وإخراج جيل لا يرى إلا الحق الذي نراه، أما الإعلام فمهمته هو الترويج لهذه القيم وتثبيتها في عقول الناس والمحافظة على صورتها الحسنة.

ومتى أمتلكت هاتين الذراعين، ملكت المجتمع.. ملكت الدولة.

وهنا تبرز أكثر نقاط القوة التي في صالحنا: «المنابر»..

فرغم ضعف قدراتنا الإعلامية، وعدم إستطاعتنا للسيطرة على الإعلام المقروء أو المرئي، إلا أننا نمتلك آلاف المنابر والمساجد عبر البلد، فمنها نخوض حربنا الإعلامية، ومنها نروج لأفكارنا، ومنها نحشد المزيد لخوض حربنا ضد الطواغيت ومن والاهم.. كانت المساجد أشبه بغرف العمليات الخاصة بنا، نكون بها مجموعاتنا، ونحشدهم، ونعبئهم، لذا كانت معركة السيطرة على المساجد من أهم وأقوى معاركنا..

الخطة الآن جاهزة لقتل الطاغوت.. وقد حددت إشارة البدء للإنقضاض عليه بعد شهر من الآن..

على بركة الله..

لكن حين عدت إلى البيت، كان بإنتظاري خبر وقع علي وقع الصاعقة.

لقد هربت شقيقتي «رانيا» ليلتها من البيت !!

****

الفصل الثاني عشر

المقاومة

ترويه: رانيا

«كفى..!!»..

صرخ بها فتجمّد الجميع في أماكنهم، كان المشهد رهيبًا، في منتصف الصالة يقف أحمد حاميًا لي بظهره من أخي «هاني» الشاهر مسدسه في صدر أحمد، بينما يقف شخص ثالث بشعر طويل وملابس تبدو كالهيبز خلف أخي هاني شاهرًا مسدسه أيضًا على هاني، أو ربما شاهرًا مسدسه على المشهد برمّته..

كنت في حالة يرثى لها، ومستعدة في أي لحظة لكي تحدث الكارثة، لكن الصرخة كانت مفاجئة للجميع، كان صاحب الصرخة جالسًا بهدوء على أحد مقاعد الصالون، آتيا من اللا مكان، ينظر لنا وللمشهد برمته بحزم، واضعًا قدمًا على قدم.

كان كل من في المشهد ينظر له بدهشة، أنا، أحمد، هاني بلحيته الكثة، والشاب ذو الملابس الغريبة، ولكن أول من أستطاع أن يتكلم كان هاني:

ـ يا شيخ.. لقد خطف أختي..!!

كانت يدا هاني ترتعش على الزناد، وهو مستعد في أي لحظة للإطلاق..

قال الرجل بهدوء:

ـ أختك ذهبت معه بإختيارها..

صعق هاني لهذا الرد، حتى كأنه أبتلع لسانه من جرّاء الصدمة..

حل الصمت من جديد، قبل أن يأتي دور الشاب ذو الشعر الطويل هذه المرة، وهو يقول بأيادي مرتعشة على الزناد أيضًا:

ـ خضر.. ما الذي تفعله هنا.. هذا هو أحمد.. هذا الشخص هو الذي أفشل مشروعنا كما أخبرتني.. هذا هو من دمّر حلمنا..!!

«كفى كذبًا على نفسك»..

إتسعت عينا الشاب وهو يسمع هذه الإجابة من الرجل المدعو خضر، حينما تابع الرجل:

ـ ظننتك شفيت، ظننتك تعلمت الدرس، لكن مشروعك لم يدمره أحد إلا نفسك، تركتك لتبني سلامًا فبنيت دوجما، كنت مظلومًا فأصبحت ظالمًا، أفترمي أتباعك في الجحيم من أجل بناء صنم جديد !!

ـ ولكن..

ـ «لا يوجد لكن»..!!

صرخ بها الرجل الذي يدعى خضر من جديد واقفًا، وتابع بغضب شديد:

ـ أتدمرون بعضكم البعض من أجل إختلافات تافهة..!!

ـ ولكنها ليست تافهة..

ـ بل تافهة.. (تابع بنفس اللهجة):

ـ «تعتقدون أنكم مختلفون، لكنكم من نفس الطينة والتركيبة

والـدم.. إنكـم مـن نفـس الأصـل أيهـا الحمقـى !!».

صمـت الجميع مجـددًا، بينما هـدأ الرجل، وعاد إلى مقعـده، ليجلس، ويبدأ حديثه..

****

كنت أناديه دائمًا «بابا»..

حقيقـة لم أعـرف أب سـواه، منـذ أن أصبحت في الثانيـة من عمري، أي منـذ أن بـدأت أستوعب الموجـودات، وجدتـه حـولي، «بابـا»، ما زلـت أذكـر إبتسـامته الحانيـة لأمـي، وهـو يحتضنها بـدفء، مـا زلت أذكـر عندمـا يفتح ذراعيـه لي، وهو يقـول بمـرح: «تعالي يا ابنتـي»، ما زلـت أذكـر عندمـا أطلب منه شـيئًا فيسـتجيب لي، ويحـضر لي ما أتمنى من حلـوى..

لهذا لم أستوعب مطلقًا أنه ربما يوجد خطأ أو خدعة ما..

كان كالفكـرة التـي منـذ أن فتحـت عينـاك وهـي تـردد أمامـك، أشـياء تعـودت أن تسـمعها وتتعامـل معهـا كأنهـا حقيقـة، كالبحـر، والمطـر، والسـماء، كان الجميـع يخـبرني بأنـه «أبي»، كان الـكل مسـاهم في عـدم معرفتـي الحقيقـة، تمامًا كالفكرة التـي تقول: تخيل لـو أن جميع الموجـودات في الكـون كـبرت بمقـدار واحـد مـتر مكعـب في لحظـة واحـدة، هل سـيلاحظ أحـد أي شيء !!، لقد كانـت تحدث معي نفس الفكـرة تمامًا..

ثـم أتى أخي «هاني» للوجود، لأشـهر، كنت منتشـية بفكـرة أن أمي

لما بطن منتفخة تحمل داخلها أخًا منتظر، ثم كدت أفقد صوابي، وهم يضعون الرضيع في حجري، ويطلبون مني أن أمسكه بشكل ممتاز، ولسنوات، كنا عائلة سعيدة، في ذلك المنزل الدافيء المدفون في قلب الحارة الجميلة..

لمدة ستة سنوات، من عامل بسيط جاء ليعيل، ويطلب قوت يومه في الحارة، إلى تاجر مهم له أعمال داخل الحارة وخارجها، وخلال هذه السنوات الست، لم يكن أبي مختلفًا في أي يوم من أيامها، بل كان يحبنا، ويسعدنا دائمًا، لكنه في السنة السابعة عرض على أمي ذلك العرض المشؤوم.. مغادرة الحارة..

ما حدث بعدها بأيام، كان صراعًا من الصعب فهمه بالنسبة لطفلة مثلي، لماذا رفضت أمي الخروج معه؟، لماذا أصر أبي على الخروج، ما الذي حدث بالفعل؟!!، لم أفهم، فجأة، إختفى الأب يومًا ما من حياتنا، وحل محله أخي «هاني»، ولكن من جعلني أكف عن حزني لرحيل أبي هو الحقيقة.

في البداية صُدمت، فالوهم الذي كانت حياتي كلها مبنية عليه، حطّمت من قِبل ولد صغير يلعب معي في الشارع، الحقيقة التي غيرت كامل حياتي صدرت من صبي ضئيل ألقاها على مسامعي بكل لا مبالاة.. وكأنها شيء بديهي كالسماء والسحب والمطر..

«إنتِ لك أب آخر»..

عندها حكت لي أمي القصة، وعرفت حينها إنني ابنة رجل صوفي

خرج بشكل غامض ولم يعد..

هل كان مصير أمي دائمًا الإرتباط مع الوهم، وهل كنت دومًا سأكون ابنة الآباء الراحلون..!!

في تلك اللحظة، قررت العيش بدون أب، قررت العيش براحة أكثر، ودون إنتظار المجهول، دون إنتظار تلك اللحظة التي سأرى فيها أبي مرة أخرى، أنا الآن لم يعد لي آباء، أنا الآن فتاة بدون أب !!

ورغم ذلك، حاول «هاني» أن لا يجعلني أحس بالفراغ، رغم أنه لم يكن هناك فراغ، لكنه حاول لعب دور المرشد الروحي معي، هاني الذي تولّى زمام الأمور بعد أبي كان رائعًا، مرحًا، وعطوفًا، وحبًا لأبعد درجة..

هاني القديم هو من أحببني في هذه الحياة..!!

ورغم صعوبة الحياة في الحارة، لكنه كان دومًا هو الشخص المطل من ذلك الشرخ ليرى بهجة الحياة من خلالها، وكأخت كبرى، كنتُ أعرف كل أسراره، حتى بدون أن يعرف، حتى تلك الفتاة التي يحبها، «أروى»، رسائله معها، لقاءاته، كنت أعلم بها بدون علمه.

لكن هاني لم يكن هو الوحيد الذي يعاني من دقات القلب المتسارعة، فقد كنت أنا أيضًا أعيش قصة حب، ومع من، مع صديق هاني المقرّب.. «مصطفى»..

****

قد تبدو لك قصتي تقليدية، الفتاة التي أحبت صديق أخيها لأنها لم تكن ترى غيره أصلًا، لكن مصطفى كان شخصًا مختلفًا..

عندما أتذكره الآن، أتذكر ذلك الشخص الحالم، المنكوش الشعر، المؤمن بالحرية، والرافض دومًا لأي إستبداد..

ما زلت أتذكره، وهو يسحب نفسًا من سيجارته الأثيرة، وهو يقول لي:

« لابدّ أن نقاوم لكي نحافظ على الحرية، إن لم تقدّسي حريتك.. نهشها الآخرون منك»..

لهذا السبب، إنضم لعصابة الغول، في البداية، رفضت بكل ما أوتيت من قوة، كنت أحبه بشدة، خفت عليه أن يصيبه أي أذى من هذا الصراع العبثي الذي لم أكن أرى منه أي طائل، كُنت أريد حبيبي وكفى، كنت أريد أن يكون لي بيت وأطفال منه، أكوي له ملابسه وأعدّ له الغذاء، أتكي على صدره، وهو يشاهد مباراة كرة القدم، أخاصمه وأراضيه، كنت أريد أن أعيش حياة روتينية معه، المهم أن أكون معه..

لكنّه لم يرضخ لي، كم بكيت له، وطالبته بالكف، هددته بأن أتركه لكنني لم أستطع، كان يقول لي دومًا:

- « رانيا.. حبيبتي.. هل تقبلين أن نجعل هذا المعتوه يتحكم بحريتنا، هذا الأحمق الجاهل يملي علينا ماذا نفعل وماذا لا نفعل بحجة نصرة الدين ومحاربة الرذيلة»..

ـ لكنهم يحاربون المخدرات..

ـ هم من خلق المخدرات.. كلامهم مخدرات.. أفكارهم أفيون.. تصرفاتهم هلوسة جماعية، يريدون أن يسيطروا علينا فحسب، نعم لست مع الطرف الصحيح، لكنها هكذا الحياة، الحديد لا يفل إلا الحديد، الحياة ليست صاحبة الخيارات الجميلة، نحن أمام إختيارات قذرة دائمًا، وعلينا أن نختار، حبيبتي علينا أن نختار..

.. «لكن مع كلّ إختيار لنا.. علينا أن ندفع الثمن».. فما هو الثمن الذي دفعه أبي السابق..؟!

كانت مسألة أبي قد عادت للسطح من جديد، ورغم قراري بالكف عن العيش بأب، إلا أنني كنت بدأت أعيد التفكير فيه، ولكن هذه المرة كشخص محايد من خارج الصندوق، ما الذي جعله يتخلّى عنا!!، ما هو الشيء الذي جذبه بهذه القوة لدرجة إنتزاعه من الحارة، أين كانت نقطة تحوله.. ولماذا أصبح قاسيًا هكذا فجأة..!!

هل هي المرأة التي تجعل الرجل يصبح آخر من أجلها، أم هو صراع «الحارة/ المدينة» الأزلي الذي تنتصر فيه كفّة على أخرى، فيبتلع فيه الرابح في كلّ مرة، أفراد جدد لدين طبقتهم الجديدة..

كل هذه الأسئلة كنت أسرُّ بها لمصطفى، فيستمع لي وينصت، وهو يجذب نفسًا طويلًا في كل جملة أقولها، إلى أن قرر يومًا ما أن يخلصني من عذابات أسئلتي..

«سأعرف لك سر هذا الأب»..

كانت المعارك حامية الوطيس في ذلك الوقت، بين معسكر الغول، ومعسكر أبي الفيحاء، وكان حضر التجول ساريًا، والخطوات محسوبة ومعدودة في الحارة، ولم يكن الوضع الأمني مشجعًا، لكن مصطفى كان من مقاتلي الغول الأشداء حقًا، مما سمح له بالخروج والتحرك بحرية..

ولذا وعلى مدى أسبوع كامل، كان مصطفى يأتي لي كل يوم، ويخبرني بنتيجة تحرياته عن أبي السابق، ومراقبته له، وقد كانت المعلومات مثيرة جدًا..

بعد رحيله من الحارة، تزوج الأب سيدة من الطبقة المتوسطة، ولكنه سرعان ما تخلّى عنها بعد سنة كاملة، بعدما أنجب منها طفل أصبح بلا أب بعد ثلاثة شهور فقط من ولادته، خلال هذه السنة أصبح الأب أكثر غنى يومًا بعد يوم، وأصبح يمتلك المصانع والمعامل والشركات، ثم في النهاية تزوّج إمرأة غنية من الطبقة المقربة من المال والسلطة، ليتوّج مكانته المادية والمعنوية التي أوصلته لهرم السلطة في البلاد.

لكن زوجته الثالثة على التوالي ماتت بعد أن أنجبت له ابن آخر بفترة قصيرة، وكما يقول مصطفى فإنه ليس متأكدًا، إن كان قد تزوج بعد هذه المرأة في السر أو لا، لكن لا يوجد أي إمرأة جديدة في حياته بشكل معلن.

كانت كل هذه المعلومات صادمة وغريبة بالنسبة لي، كيف أستطاع

هـذا الرجل أن يتحـول من الرجل الطيـب الوديع مع عائلتـه إلى رجل سـلطوي ذو نفـوذ ومال وسـلطة، كل هـذه التحاليل كنـا نتناقش فيها وندرسـها أنا ومصطفـى، ونحن غـير مصدقين هذه القصة التي أشـبه مـا تكون بالإسـطورية، لكن في اليوم السـابع، كانـت الطامة..

كان قد أرسـل لي مصطفى رسـالة مفادها أن هناك معلومة خطيرة قد تحصـل عليها تتعلق بأبي السـابق !، أخذ قلبي يدق بشـدة، وتشـائمت ممـا سـيحدث، في ذلـك اليـوم تقابلنـا وكان المطـر يهطل بشـدة، لاقاني مصطفـى وهـو ملتحف بجاكيت يقيه المطر، وشـعره مبلـل بالكامل.. نظر لي بعينيـه وهو يقول:

لقد إكتشـفت إكتشـافًا خطير يتعلق بأبيـك والصراع الـذي يدور في حارتنـا تحديـدًا، إكتشـفت أن أباك يعرف الغول شـخصيًا، وقـد التقاه عـدة مـرات، وهنـاك احتمال أن يكـون أباك متورط بشـكل مـا في هذه الحـرب، أو أنه يـورّد المخدرات أو الأسـلحة أو شيء مـن هذا القبيل..

لم أصدق أذنيَّ، لم أصدق أبدًا، ما الذي أسمعه الآن..

كان مصطفـى يقـول مـا يقوله وهـو يرتجـف، كانت الأمطـار غزيرة جـدًا، لكنـي رأيت دموعًـا تترقـرق في عيناه، سـمعته يهمس:

« يـا الله.. هـل كنت أؤمن بقضية خاسرة، قضيـة لم أفهمها، لقد كنت أفعـل ما أفعلـه من أجل الحرية، أنا إنسـان حـر أدافع عـن مبادئي، هل القصـة أكبر ممـا أفهمـه..!!، هذا أبـو فيحاء القـذر.. لقد أحـال حياتنا جحيمًا»..

كنت أنظر له، وأنا لا أدري أنني أراه للمرة الأخيرة..

- «الوضع أصبح خطرًا يا رانيا، العيون مفتوحة وربّما هناك من يراقبني، ربما أستمع لكلامك وأخرج من هذه الحرب، لكني لن أتوقف عن الدفاع عن الحرية، لن أتوقف، أتسمعينني»..

ثم أنه ضمّني إليه بشدة.. وهو يقول لي:

«رانيا.. أحبك.. هل تسمعين.. أحبك»..

ثم أبتعد عنّي دون أن يدعني أقولها له..

في الصباح علمت أنه مـــــــــــــات..

****

بعد أن مات مصطفى قررت ألّا أتكلم..

ما تلا ذلك من ثورة قادها أخي للإنتقام من الغول كان شيئًا ملهمًا، لكنّه دفع الثمن غاليًا، لقد سحق أخي الغول، لكنه سقط في فخ أبي الفيحاء، وعندما خرج، أيقنت أن أخي هاني لم يعد كما كان سابقًا، في البداية، حقًا لم يكن الأمر سيئًا، كان يحاول هاني أن يفرح أمي ويعوّض عليها، تظاهرت بالسعادة، تظاهرت بأن كل شيء يمضي على ما يرام، ربما أنا نفسي حاولت أن أصدق، ولكن تلك الهالة التي كانت تخيم على هاني الجديد، لم أرتح لها يومًا، هؤلاء الرجال، الأتباع، القوانين، القواعد، كلّها كانت تذكرني بكلمات مصطفى، كل ألاعيب الخداع والدجل التي حذرني منها مصطفى

أراها أمامي الآن، منذ حقنني مصطفى بترياق المعرفة، بترياق الحرية، وأنا لن أترك حريتي تُسلب مني، وقد جاء إنتقالنا للبيت الجديد خارج الحارة كبداية لهذه الحرب، بين الحرية والقيود، روح مصطفى ترافقني دومًا، كلماته دائمًا تحضرني..

«لابدَّ أن نقاوم.. لكي نحافظ على الحرية»..

لذا لم تمنعني لسعات حزام أخي على جسدي من المضي قدمًا، حرماني من الدراسة، التلفزيون، الموبايل، كل شيء، كلما ضاقت بي السبل، كلما أخترعت طرقًا جديدة لمقاومتها..

وقد كان باب الخروج الذي أملكه دائمًا هو الإنترنت..

كان من العبث حقًا تنفيذ فكرة الرقابة في القرن الواحد وعشرين، كنت أدخل في البداية من أجهزة المنزل، ثم حين منعها بتُّ أدخل من الموبايل، أخذ الموبايل فأشتريت آخر دون علمه، لا أحد يتعلم الدرس حقًا، لا أحد يصدّق أن جدار العزلة إنهار للأبد..

من الإنترنت أكملت المسيرة، ومن الإنترنت تعرفت على سارة، من الإنترنت قرأت وقرأت وقرأت، من الإنترنت دخلت على أنا إمرأة حرة، من الإنترنت ملكت المعرفة وسقطت كل الأوهام، أنا الآن مستعدة !!

عندها قدّمت لي سارة العرض، مهمة من المهام الخاصة بحركتنا، أطلعت على التفاصيل فوافقت، الهدف كان شابًا يدعى أحمد، المعضلة: معاناة من آثار إكتئاب نتيجة فقده لحبيبة ممّا تسبب في خيبة

أمل كبيرة في الحياة، الهدف: إرجاع أحمد القديم من خلال إيقاظ المشاعر الإنسانية التي فقدها نتيجة هذه الصدمة، الطريقة: إنقاذه لفتاة مضطهدة، وعيشه معها في مكان واحد..

-الفتاة: أنا.

****

-«مستحيل..!!»..

قالها أحمد والصدمة تكاد تفتك به، أما أخي هاني وشبيه جيفارا، فإن الصدمة قد شلّتهم تمامًا..

كانت كل الأعين متجهة نحو الرجل، خضر كما علمت، قال تكملة للحديث الذي أخبرنا فيه بالحقيقة المذهلة:

-لا مزاح في الأمر، كلّكم كما قلت من أصل واحد، من صلب هذا الرجل..

إزدادت الحدقات إتساعًا.. إتكأ بشكل أكثر راحة وأكمل:

-نعم هو الرأسمالي الغني، الطاغوت المتجبر، الأناني المتخلي، المتلاعب بكم، المحدد لمصائركم، مالك الأملاك، مسبب بؤسكم وشقاكم، إنه أبوكم جميعًا..

حاول الشاب ذو الشعر الطويل أن يقول: و «لكن»..

«أتقتل أخاك»..!!

صرخ فيه الرجل، وهو يقف غاضبًا:

- أتريد أن تكرر المأساة، أترك سبب المشكلة.. جذرها.. وتاني للفرع.. أخبرني.. أليس هذا هو الأب الذي دفعك لأن تقتل آخر، ثم تخلّى عنك وقت هروبك، أليس هو الأب الذي تخلى عن أحد وتركه لآلامه يتعذب، أليس هو نفس الأب الذي دفع هاني للهجرة خارج الحارة وقتال أهله.. أليس هو سبب آلامنا جميعًا..!!

عمَّ الصمت الجميع، الإخوة الثلاثة ينظرون لبعضهم وكأنهم أمام حقيقة الوجود..

عدّل الرجل الذي يدعى «خضر» قامته، ثم قال:

- إن كنتم تريدون الخلاص.. أقتلوا الأب..!!

ثم رحل تاركًا الجميع بهدوء..

****

الفصل الثالث عشر

«الخضر»

يرويه: أحمد

«في ذلك اليوم، يعاقب الرب بسيفه القاسي العظيم الشديد، لوياتان الحية الهاربة، لوياتان الحية الملتوية، ويقتل التنين الذي في البحر»

- التوراة - (أشعيا 27:1)

نتائج البحث في جوجل «الخضر»:

هو الخضر بن ملكان بن فالق بن عابر، يعرف لدى المسلمين بالخضر، أو العبد الصالح، بينما يسميه اليهود، إيليا النبي، أما عند المسيحيين، فيسمونه مار جريس، أو القديس جاورجيوس، أو كما يعرف الآن بالقديس جرجس..

للخضر مقامات عديدة يبلغ عددها حوالي 70 مقامًا، معظمها متواجد في فلسطين، سوريا، لبنان، والدول المجاورة لهما، وهذه المقامات والمواقع ما هي إلا أماكن جلوس وإستراحة أو إقامة قصيرة له.

للخضر قصص كثيرة وروايات أكثر، فقد كان كثير التعبد والسياحة، والخضر معروف في كل الديانات، وهناك اعتقاد أنه حي لا يموت، يبعثه الله في كل زمان ليدعو إلى الإيمان.

يقال إنه اشتهر بلبس العباءة الخضراء، كما يزعم أنه دعي هكذا لكونه صلّى فاستنزل الغيث على الأرض بعد انحساره عنها ثلاث سنوات، وهو الرجل الذي رافق موسى في تجواله، وهو القديس جرجس الذي قتل التنين في مدينة (سيريني) في ليبيا، وحرر زوجة الملك.

وتحكي القصة الأسطورية التي حدثت في ليبيا وتحديدا في مدينة سيلين «الخمس حاليا» كما يرويها جاكوبو دي فيرجين في كتابه «قراءات القديسين» حيث قدم القديس جورج إلى ليبيا ووصل إلى

سيلين ليجد هناك تنينا تقدم له القرابين كل سنة حيث يقدم له أحد أبناء المدينة ليتقو شره، وفي تلك السنة وقعت القرعة على ابنة الملك لتقدم قربانا إلى التنين ليأكلها، وعندما سمع القديس جورج هناك بالقصة اقترح ان يصارع التنين وسط دهشة الجميع، دخل القديس جورج في معركة مع التنين وقتله بالفعل، وانتشرت القصة واصبح منذ ذلك اليوم رمزا دينيا وثقافيا كبيرا جدا لدى المسيحيين، وقد سميت كما سميت باسمه الاف الكنائس في العالم.. ومئات المدن والمناطق، من بينها عدة كنائس في ليبيا باسمه لا زال بعضها موجودا إلى اليوم ككنيسة مارجريس في المدينة القديمة طرابلس، وكنيسة مارجريس في مصراتة، ويوجد عدة نقوش ولوحات قديمة تصور قهره للتنين في ليبيا، أحدها ما يزال معلقًا في أعلى قلعة في طرابلس، لا يكاد يثير انتباه احد من المارة.

وتشير المصادر أن مار جريس الذي تحوّل لدى المسلمين إلى الخضر، هو نفسه الإله «تموز» البابلي ابن عشتار الذي يعد في المعتقدات القيامية القديمة تجسيدًا لروح النبات، إنه إله زراعي تمامًا، وحتى اليوم ما زال الكهنة في روسيا يخرجون في عيد ما جريس «23 نيسان»، مع جمهور من الناس إلى الحقول ليباركوها، ثم يتقدم المتزوجون حديثًا، فيتدرجون على الأرض في طقس إخصابي واضح، يشبه كثيرًا ما كانت تفعله نساء العريش وغزة وبيروت في أربعاء «أيوب»، الذي هو الرديف الإسلامي لعيد الفصح المسيحي «عيد القديس جرجس»، ولطقوس الخصوبة القديمة، فترتمي النساء على

أمواج البحر سبع مرات لطرد الشرور السبعة، ويطلبن نعمة الزواج للعانسات، والحبل للعاقرات.

****

من يكون هذا الرجل؟!!

من أين له أن يعلم كل هذه الأشياء عنّا، تفاصيل حياتنا، تفاصيل حياة إخوتي؟!، هل هم حقًا إخوتي كما قال، هل بالفعل «حمزة» خالق منظمة «هرمجدون» هو أخي !، القائد الإسلامي المعروف «أبي قتادة» !، من كان يصدق أننا من نفس الأب، بل من كان يصدق أن يأتي هذا الرجل المدعو «خضر» في الوقت المناسب لينقذني مما أقترفت يداي من تلاعب خلال الأيام الماضية !

لم تكن صدمة حمزة وأبي قتادة أقل من صدمتي، بعد رحيل ما يسمى «خضر» من المكان، ما كان من حمزة إلا أنه دس مسدسه في جيبه ورحل وهو يلهث من فرط التعصب والدهشة.

أما أبي قتادة فقد نظر لي بلحيته الكثة للحظات، ثم نظر لرانيا قبل أن يقرر أن يمضي بهدوء شديد، تاركًا «رانيا» معي وكأنه إعتراف ضمني أن ما يحدث هو أمر حقيقي، وإن هذه الأشياء ستعالج في وقت لاحق.

أما أنا فقد نظرت لرانيا بعد رحيل الجميع، وأنا أنتظر أي تعليق لهذا، كانت منهارة، والدموع تنهمر من عينيها دون صوت نحيب، لكنها أستجمعت بعض القوى، وقالت لي:

ـ«ما قاله الرجل حقيقي. وتأكدته منه»..!!

ـ«ماذا؟!».

ـلكني صدقًا لم أكن أعرف أنك الشخص المعني.. لم أكن أعلم بكل هذه الأشياء المترابطة، حتى لقائي بك كان خطة من فتاة تدعى سارة.

ـسارة !!، من سارة !، كيف خطة !! أفهميني ما الذي يحدث هنا!

كانت «رانيا» ترتعش، ولم تعد تستطع الاحتمال إزاء ما يحدث، فإنهارت لتبكي هذه المرة بشدة أكبر.

ظللت أصرخ عليها، وأنا بإحساس عام يشعر بأنه خدع، وجرح، وتمّ الضحك عليه..

ـأفهميني.. أي خطة التي ألقت بك عندي.. ماذا يحدث؟؟!

حاولت أن تستجمع ما تبقى لها من قوة، تمالكت نفسها قليلًا، ووسط البكاء قالت لي:

ـصدقني أنا فعلًا كنت فتاة مظلومة ومضطهدة من أخي هاني، لم أكذب عليك وكنت فعلًا أنوي الهرب، ولكن سارة ومن معها هم من أخبروني بأن أتصل بك !، هم من طلبوا مني أن أدخل في حياتك لأنسيك ألمك، وأجعلك تستعيد حيويتك وشخصيتك السابقة وترجع كما كنت !!

وإنهارت مرة أخرى في البكاء..

ما الذي يحدث حقًا، لم أعد أفهم، لماذا أجر للماضي السحيق هذا مرة أخرى، لماذا أكتشف من هو أبي الآن، بعد ما سببه لي من ألم وحزن على مرّ كل هذه السنوات، لماذا يتم وضع رانيا في حياتي لكي تنسيني آلامي وتجعلني أستعيد حياتي السابقة، ثم أكتشف أن الأمر مجرد خدعة !، من سارة هذه، ومن هم الأشخاص اللذين معها؟!، وهل إشتراك ووجود صديقي الأعز إلى قلبي جمال في مشروع أخي المدمّر كان صدفة؟!، من هو هذا الرجل المدعو «خضر»، والذي يسرفه إخوتي الأثنين، ولماذا يدعونا لقتل أبينا..؟!

«أكاد أجن»..

فجأة، رنّ الهاتف، فقطع حبل تساؤلاتي، وهرعت لكي أرد، لقد كان «جمال» يتصل بي، وعندها تذكرت ما الذي حدث، وما فعلته في منظمة «هرمجدون» الأيام الماضية مرة أخرى..

****

في ذلك اليوم، يوم رحيل جمال.. ترك شيئًا..!!

في البداية لم أنتبه له، كان كتاب كأي كتاب من كتبي المبعثرة الملقاة في كل مكان في الشقة، كنت أجيء وأذهب منه وإليه دون أن ألاحظ، ثم لاحظت !!، كتاب ذو قطع متوسط، وصفحات ذو عدد لا بأس به، «كلينامن» الكلمات المقدسة..!!، ما هذا؟، حينما وضعته في يدي، تذكرت أين رأيته، كان جمال حينما لبي دعوتي يحمله في يده بشكل ملازم، لم ألاحظه في البداية لانه كان يحمله بشكل جانبي، لكن حينما

جلس وأراحه على حضنه رأيته!!

بدأت أقلّب صفحاته وأقرأ، شيت.. هل هذا الكلام حقيقي !!، هل هذا الكلام جدّي؟! إنه كارثة، خطاب مسترسل مليء بالكراهية والحقد والتقسيم والتمايز والتدمير والعنف..!!، هل من أحد يقرأ هذا الهراء دونًا عن ربّما تصديقه أو تعلمه أو تطبيقه !!، هذا شيء خطير..!!

دون أي مقدمات، إتصلت بجمال وقلت له جملة واحدة:

ـ«كتابك لدي.. تعال لتقابلني وإلا»..

ثم أقفلت الخط..

لم تمر ساعة حتى كنّا متقابلين متواجهين في شقتي، لم تنبت من شفاهنا أي كلمات أو جمل، فقط أنا من قلت له:

ـ ما هذا الهراء..؟!، أهذا هو مشروعك الخلاصي؟!، أتسمى هذا فعلًا ثوريًا..؟!

ـ أعطني الكتاب يا أحمد.. ودعني أذهب..!

ـ لن أدعك تذهب.. حتى تشرح لي ما هذا؟!، وإلا سأضطر آسفًا للإبلاغ عنك..!!

صمت للحظات ليستوعب تهديدي، تغيرت ملامحه، ثم قال بلهجة صديق:

ـ أرجوك انضم إلينا يا أحمد، أنت عقل فذ، وهذا المشروع هو

المشروع الذي سيغير العالم، هذا المشروع الذي طالما انتظرناه، القضاء على الظلم، القضاء على الفساد، إقامة مملكتنا العادلة، مملكتنا التقدمية، سنصنع التاريخ..

بلع ريقه من فرط الحماسة ثم أضاف:

ـ أنا الآن في مجموعة «مخربو شركات الإنترنت»، سنقوم بقطع الاتصال عن الجميع، سنعود للحظة البدء الأولى، مشهد القيامة الأخير الذي طالما انتظرناه، لنبني على أنقاضه عالمنا النموذجي، لا بناء بدون هدم، مجموعات أخرى ستتحرك مثلنا، معًا سنغير وجه العالم، كما قالت كلمات كلينامن، كلمات كلينامن التي لا تخطئ أبدًا..

كنت أراه وهو يتكلم، كان في حالة هيستيرية مقدسة، كان ممتلئ بالإنفعال والشجن العاطفي والوهم اليقيني للحالة المعرفية التي وصل إليها، من الواضح أنه خضع لأيام طويلة من التدريب، ومعسكرات مكثفة ليصل إلي حالة الهيام التي أراها أمامي ماثلة..!!

«هل جننت»..؟!!

حان وقت هجومي الآن..

ـ هل تعي ما تقول يا جمال..؟!، أنت تريد تحطيم وتفكيك البناء المجتمعي في مجتمع أمّي وجاهل معرفيًا..!! أنت تريد إعادة الحالة الأولى لأناس لا يمتلكون أي نخبة تقودهم !!، أنت تريد تحطيم الدولة في مجتمع يدين بفكر الإرهاب والتكفير وإقصاء الآخر وقتله وسحقه !!

منظومة الأخلاق منهارة لدينا، شعوب بلا ثقافة ولا فكر، تعاني من أزمة هوية ولغة وتصحر معرفي، ولا تقتات إلا على كتب التراث والكتب الصفراء، فماذا تتوقع النتيجة..!!

نحن غير مستعدين للفوضى، نحن نحتاج لثورة دينية واجتماعية ومعرفية، ونحتاج للتخلص من العديد من الأفكار القاتلة عبر سنين من التطور والإصلاح قبل الدخول في العصر الذي تنادي به !!

- ولكن الدولة الحديثة تقمعنا يا أحمد؟!، الدولة الحديثة بأجهزتها القمعية تضيق الخناق علينا، الفساد، الرشوة، الضحالة، التخلف..!!

أجبته بدهشة:

- أين هي الدولة الحديثة أصلًا، نحن لم نصل للدولة الحديثة بعد، إننا ما زلنا مجموعات متناحرة ترهب بعضها بعضًا، بدون أي شكل من أشكال المواطنة أو الهوية المدنية أو الحريات، وأنت تريدنا أن نقفز لمرحلة ما بعد الدولة..!!

مبدأ المواطنة وتداول السلطة والحريات والعقد الاجتماعي في الدولة الحديثة لا يمكن أن تصل إليه بدون العلمنة الحقيقية للمجتمع، وإلا فهي ليست دولة مدنية، بل اقطاعية يملأها الخوف والإرهاب، كما يحدث لدينا الآن..

إن ما تنظّر له هو نظرية أفلاطونية، ستنتهي بنا إلى حكم من التسلط، وديكتاتورية القوة والغباء والتخلف، وإن أفضل ما يمكن أن نفعله هو الإصلاح التدريجي في مشروع معرفي يغير جذور هذا

المجتمع البائس بالفعل!!

عندما أكملت حديثي، ونظرت له، وجدت عينين خاويتين، وروح راحلة إلى عالم بعيد كل البعد عن العالم الذي انطلق منه، كان يقف أمامي بجسد متيبس كالصنم، ونظرة أراها لأول مرة في ملامح جمال.. لا فائدة.. رميت له الكتاب، فالتقطه بكل حرص شديد، ثم رحل..!!

****

لا أخفي أنني لأيام ظللت أفكر في إلى ما سيؤول إليه الأمر، لم أكن أعلم حقيقة هذه المنظمة بعد، لم أكن أعلم جديتها، كبرها، حجمها، وإمكانياتها، عدا ما تفوّه به جمال عن مهاجمة شركات الإنترنت وقطعه، لم يتحدث بشيء آخر، كان يومها صامتًا كالقبر، حتى الكتاب كان عبارة عن نصوص أوّلية تحتمل التأويل، كنت أحتاج إلى كتاب به نصوص ثانوية، كنت أحتاج إلى كتاب شروح !!

حتى إني حكيت لرانيا القصة في أحد أوقات راحتنا في الفراش، أحسست كأنها تفاجأت، لكنها بعد ذلك صمتت صمتًا مريبًا، هل كانت متفاجئة من تشابه ما تفعله بما يفعله جمال، هل كانت تقارن؟!، أم أحست أن هناك رابطًا ما، يجمعها بهذه القصة لكنها لا تعرفه..!!

لكن ما فاجأني أنا حقًا، هو ما حدث بعد لقائي الأخير بجمال بعدة أيام، حينما رنّ جرس الشقة، وعندما فتحت، سقط عليَّ جسد

منهك يمتلكه شخص يدعى جمال..!!

كان يبدو وكأنه قادم من حرب منهكة، أرحت جسده على كتفي، ثم مضيت به حتى جعلته يستلقي على الكنبة، كان يرتجف ولا أعرف لماذا، أحضرت له بطانية غطيته بها، كانت عيناه نصف مفتوحتان وكأنه من عالم آخر، وكان ينطق بجملة واحدة، وبوهن شديد، ميزت منها الآتي:

ـ جوزفين.. أين أنتِ يا جوزفين..!!

****

ماتت جوزفين، جوزفين الفتاة الجميلة والرقيقة ماتت، ذهبت إلى العدم، قطفت ورودًا من حديقة العبث المقدّس ثم رحلت، رحلت ورحلت معها كل الأحلام والإبتسامات والأوقات الجميلة التي كانت ستقضيها معك، إنتهت هكذا في لحظة، من أجل قضية غير معروفة.. قضية وهمية.. غير حقيقية.. هل يوجد قضية حقيقية أصلًا تستحق أن نموت أو نستشهد لأجلها..!!، وهكذا يصبح الموت هو وسيلة الإقناع الأخيرة لكي يستفيق جمال، ويعود إلى رشده، يا له من ثمن باهض دفعه لكي يرى العالم بشكله الحقيقي. وكم هو الثمن باهض لكي نستفيق من الوهم..!!

في ذلك اليوم، حكى لي جمال كل شيء، عن منظمة «هرمجدون»، عن حمزة رئيس المنظمة الأسطورة، عن مواعيد هجومهم، والعديد من المعلومات الأخرى، التي تحصل عليها جمال بسبب دوره القيادي

الكبير الذي تحصل عليه في المنظمة، ثم إنه رحل في نفس اليوم، قال لي: يجب أن أعود كي لا يحس أحد بغيابي.. أحتضنته بقوة، ضحك لي وقال: لا تقلق علي.. حافظ على نفسك أنت جيدًا.. وأكمل البحث من أجلي أرجوك..

وهكذا نقلت كل ما قاله لي جمال من معلومات إلى السلطات بشكل فوري، لكن دون أن أعلن عن هويتي، أفرغت كل ما لدي، أديت واجبي، ثم رجعت لحياتي ببساطة، وانشغلت في تكملة أبحاثي، كنت مدفوع بأماني جمال ودعم رانيا، كنت أحس أنني أقترب من هدفي، وأنني لابد من تحقيق هذا الهدف، وبدأت أحس فعلًا إنني على وشك الانتهاء من هذه الرحلة المتعبة لكن الممتعة، وهذا ما تمّ فعلًا، وكم أحسست بالراحة عندها..

لكن لحظات السكينة لم تدم طويلًا، لحظات فقط قبل أن تتوالى الأحداث الدرامية، وها أنا أجد نفسي في لحظة ما، وقد تبعثر كل شيء من جديد، وبيدي هاتف يرن بمكالمة لجمال..

وعندها رددت..

«أحمد.. هل تسمعني.. الوضع خطير يا أحمد.. حمزة جن جنونه بعد فشل خطته.. وهو ذاهب الآن في مهمة انتحارية للقضاء على أبيه وقتله..!!، أنا ذاهب للقيام بمحاولة لإيقافه.. ولكن أخشى ألا أنجح.. أنا سوف..»..

ثم إنقطع الإتصال..!!

عندها عرفت أنه لابد علي من فعل شيء لتصحيح الأمور..

****

كنت أعد نفسي للخروج بسرعة عندما جاءتني رانيا..

قالت لي بتوسُّل:

- لا تذهب..

- لابدّ أن أذهب.. لابدّ أن أنقذ ما يمكن إنقاذه.. صديقي جمال في ورطة..

صمتت للحظات، ثم إنها قامت باحتضاني بكلتا يديها وهي تبكي:

- أقسم لك إنني أحبك.. صحيح قد قمت بخداعك في البداية.. لكني حينما عشت معك، وعرفتك عن قرب، لم أستطع أن أقاوم.. طيبتك وصدقك.. ومشاعرك النبيلة.. وقيمك الإنسانية.. لقد أحببتك بصدق، مشاعري كانت صادقة معك، صدقني لم أكن أمثّل عليك..

لم أقل شيئًا، كان قلبي يعتصرني وأنا أتذكر الأيام القليلة التي أمضيناها معًا، ونحن نستمع إلى جوليا بطرس، ونحن نأكل الكورنفليكس، ونحن نغمض أعيننا حين نمارس الحب، صدقًا حاولت منع نفسي من الإعجاب بها، والوقوع في هذه المشاعر.. لكني لم أستطع..

نظرت في عينيها للمرة الأخيرة.. كانتا مليئتين بالدموع:

- قلت لها: أحبك..

- «وأريد لأن تلبّي لي طلب آخير.. قولي لأمي: شكرًا لك على هذه الحياة الجميلة»..

ثم غادرت..

****

شكرًا لك يا أمي..

شكرًا لأنك أعتنيتي بي لوحدك، شكرًا لأنك تحملتني كل هذه السنين، شكرًا لأنك جعلت منّي هذا الإنسان الذي أكونه، وآسف لأنني لم أستطع أن آتي لكي أودّعك..

شكرًا لكل من قرأت لهم.. شكرًا لكل من فكّر في فكرة جعلت هذه الإنسانية أفضل، شكرًا لكل الإنسانيين الذين زرعوا بعلومهم وكلماتهم وحروفهم وأغانيهم قلوبًا تدق من أجل الخير..

شكرًا ريتشال كوري..

جون لينون..

بيتر جون..

أميرة ديانا..

شكرًا منظمة أطباء بلا حدود، شكرًا SOS Recisme، شكرًا

منظمة Child in Need..

منظمة السلام الأخضر، منظمة العفو الدولية، Sum of us، الصليب والهلال الأحمر.

شكرًا لكل المطاعم الخيرية والحركة الكشفية، وكل منظمات الإغاثة والإعانة، ومنظمات رعاية النازحين والمهجرين..

شكرًا لكل من جعل هذا العالم مكانًا أفضل، شكرًا لكل الخيرين في هذه الأرض، رغم كل مساوؤها، رغم كل النفوس المظلمة، ما زال النور موجودًا ليرشدنا للطريق القويم، للعدل، والخير، والإنسانية..

لست حاقدًا على أحد بعد اليوم، لست أبغض أي أحد، حتى أنت يا أبي، يا من تخليت عني، يا من جعلتني أتألم لسنوات، إنني أغفر لك كل ما فعلته لي، فما كنت أعتقد أنه أذى أنقلب حبًا عظيمًا، لقد عشت مع أمي أجمل أيامي بدونك، بدونك أصبحت لي هذه الشخصية الرائعة، لقد تحررت من كل عقدي يوم غفرت لك، لقد تحررت منك..

أنا لا أب لي، وها هي المغفرة أقدّمها لك على طبق من ذهب، أما أنا، فإن كانت حياتي هي ثمن سعادة وخلاص هذه البشرية، فأنا مستعد لكي أضحي بهذه الحياة.. وأنا مستعد لأن أُقدم على هذه التضحية..!!

****

الفصل الرابع عشر

الأب

يرويه: حمزة

وسط الدموع، أتذكر أمي، أتذكرها وهي تلاعبني، بفستانها المزركش البسيط، ابنة رجل الأعمال الغني، التي اعتادت على البساطة في العيش والحياة وكل شيء، ثم يأتي أبي، ما زلت أتذكره حينما يدخل الغرفة، مهيب، يرتدي حلة أنيقة، وساعة غالية، يدور حوار أشبه بصراخ، لا أسمعهم، لا أفهم، يخرج من غرفتي وفي الطريق يدهس لعبتي المفضلة فيحطّمها، أبكي، أمي تحتضني لتهدئني، ثم تختفي أمي، ويبقى الأب..

****

وسط الغضب، وسط الدموع، ألقم المسدس، وأقود مسرعًا لأبي، لشركته حيث يقبع هناك داخل ذلك الصرح المهيب، الأشبه بقلب داخل جسد، أبي قلب شركته، وشركته قلب الدولة، لقد فهمت الآن الكلمة، سأقتله، سأقتل أبي حسب وصية خضر، سأقتله لينتهي كل شيء..

الدولة كالأب، دائمًا ما تؤنبنا، وتعاقبنا، تحرمنا، وتمنحنا، والأب مثل الدولة، تربينا منذ الصغر على أنها الكيان الذي يحمينا ويدافع عنّا، وإنها ولية أمرنا ولا ولي أمر سواها، بدونها نحن تائهون، وبدونه فنحن ضائعون، تمتلك الموارد فلا تستطيع إلا أن تطيع، يعطيك النعمة فلا تستطيع إلا أن تشكر، أن تكون عبدًا لمن يمنحك، أن تركع للقوة المادية، فتصبح هامشًا تحت الصفر.

لذا وجب قتل الأب..!!

هل هذا هو السر الذي كان يريد «خضر» أن يوصله لي منذ البداية، هل هذه هي الرسالة التي لم أستطع فهمها فوق قمة جبل «نبوّ»، هل أخطأت الفهم!!، هل أخطأت إشارات الإلهام من الخضر!!، منذ بداية تكوين المنظمة!!، منذ بداية الرحلة وحتى منعي من قتل «أخي»، معركتك ليست مع أحد.. معركتك مع الأب..!!

ما زلت أذكر إلى الآن الليالي الجميلة التي كنت أقضيها أنا والرفاق في تكوين المنظمة، ما زلت أذكر كل أيام التعب والسهر والشوق لصناعة حلم الجنة التي كنّا نحلم بها، اليوتوبيا الأرضية، ما زلت أذكر كل من انضم لنا، وكل من آمن بنا، وكل من مات واستشهد لأجل فكرتنا.. هل تمضي دمائهم هدرًا.. هل ذهبوا من أجل فكرة لن تتحقق مطلقًا..!!

أذكر الآن، قبل رحيل «خضر»، وقبل إنشاء المنظمة، ونحن ما زلنا فوق جبل «نبو»، قال لي في لحظة تأمل، وهو ما بنيت عليه العديد من الأشياء لاحقًا:

ـ أسوأ شيء يمرُّ به أي مجتمع هو النظرة الأبوية الاستعلائية، أن يقول لك الجميع «نحن أعرف منك، نحن أعلم منك.. لا تتكلم».. هذا يدمّر المجتمع تمامًا.. ويربي مجموعة من القاصرين..

أقتل الأب..!!

أبي هو المسؤول عن جعلي أعتقد أنني أفضل شخص في كل هؤلاء الناس، وكل أب يغذي ابنه بأنه الأفضل والأعقل والأسمى

والأجمل، ثم يأتي الأبناء ليقتلوا بعضهم البعض بأسماء وأمجاد آبائهم، ألا يذكركم هذا بشيء، أليس أبي وجبروته وعظمته وقدسيته هي التي جعلتني أصبح هذا المسخ، أن أعبث وأفسد وأقتل، وأقتل من؟ أب حبيبتي.. أب هدى.. هذا الأب المسالم الذي لم يقترف شيئًا في حياته سوى أنه ليس أبي!!

اقتلوا هذا الأب..!!

لحظتها وجدت نفسي في مكتب أبي..

ـ«حمزة»..!!

قالها بصوت جهور، وأكمل:

ـ«أين كنت يا بني، أين كنت مختفيًا، لقد بحثت عنك طويلًا ولم أجدك»..!!

أشعر بالخوف، أشهر بالرهبة، أحس وكأن هناك تجويفًا تحت قدمي يحاول أن يبتلعني، لكني حاولت استجماع قواي قدر الإمكان، وبذراع مرتعشة، رفعت المسدس، وصوبته في مواجهته.

ـ«لا تفعل أرجوك»..

سمعتها قادمة من ذلك الشاب الذي ظهر في المشهد، اسمه أحمد، وكما أعرف الآن فهو أخي، كان ثلاثتنا الآن واقفين في بهو المكتب على مسافات متساوية، أخ يترجاني بنظرة متوسلة، وأب ينظر للمشهد في هدوء وتماسك شديدين.

ـ«ما الذي جاء بك إلى هنا»..

قالها الأب موجهًا كلامه لأحمد، قالها وكأنه يعرفه منذ زمن بعيد، منذ زمن الولادة تحديدًا، لكن أحمد لم يرد عليه، بل واصل حديثه معي:

ـأرجوك لا تفعل.. أنت ستدمر كل شيء.

كنت غاضبًا، حانقًا، كانت براكين الغضب تتفجر في جسدي، كنت حتى لا أريد الرد، أو الدخول في جدال، لكنني رددت:

ـ«أنت لا تفهم.. إنهم يمصّون دمائنا، هؤلاء الأوغاد يجردوننا من إنسانيتنا، لا بد من إنهاء هذه المعاناة، لا بد من مسح هذا الفساد، لا تتدخل، يكفي أنك أفسدت كل شيء المرة الماضية»..

ـنعلم ذلك، ولكن البديل الذي تطرحه هو الفوضى، سنغرق في جهل وفساد ومستغلون جدد، ليست بالحماسة تدار الأمور..

ـإننا ننشد التغيير..!!

ـالتغيير لا يأتي في يوم وليلة، الأمر ليس سحرًا، التغيير يحتاج إلى سنوات من التغيير الجذري، لا لحرق المراحل..!!

ـلابدَّ من سحق الدولة..!

ـلكن الفوضى ستعم، وعندها سيحكم الجهل والتخلّف.

ـلكن الدولة هي من ترعى الجهل والتخلف..

ـبالتنوير والتجديد والعمل الجاد سيختفي الجهل، ونبني بالعلم

والإرادة دولة التقدم والحريات والمواطنة..

-الشعب يعاني..!!

-الشعب قد يقضي على نفسه بنفسه، لو انطلق الجهل المسيطر في داخله، لا بد من تفكيك مشاكلنا الجوهرية أولًا، لا أن نسعى لتطوير ظاهري فننتكس.

-هناك استبداد لا دواء له.. لابد من تغييره بالقوة..

«الشر مبرر ومباح.. ما دمت في موقع القوة..الحق جريمة لأنها عند الضعفاء..»

-العنف لا يولد إلا العنف صدقني..

-سيأتي هذه المرة أناس أخيار..!

- دائرة الاستبداد ستعيد نفسها.. لا مناص من سيكولوجية الإنسان..

-سنعيد الحق للجميع.. وسيصبح الناس سواسية كأسنان المشط..

-يوتوبيا أرضية.. ليست واقعًا للأسف.. أنت تحلم بالمستحيل..

-والحل..؟!!

قلتها في وهن شديد، وقد أعياني النقاش.

رد أحمد وقد أخذ نفسًا عميقًا:

-الحل في العلم، في المعرفة، في نبذ الأيدولوجيات التي عفا عليها الزمن، في تطوير عقد اجتماعي جديد، يتجاوز عيوب الأنظمة

الديمة، حقوق إنسان لا متاجرة بقضاياهم، حرية اقتصادية لا استغلال، ضمانات اجتماعية لا قهر اجتماعي، مواطنة حقيقية ومساواة إنسانية، خير بدون سيطرة، وتغيير بدون عنف..

هذه المرة نحن في زمن التكنولوجيا، في زمن الفضاء المفتوح، في زمن الإنترنت، لا يمكن لأحد أن يحتكر المعلومة، أو يوقف البث، أو يمنع الكلمة، لقد تعب الناس من الرصاص والفقد والموت، لتكن المعرفة بدل الرصاص، لتكن الثقافة بدل الحرب، لتكن الموسيقى بدل الموت..

«مخـــــــــادع»..!!!

صرخت بها بكل قوة، كنت أحس أنني وصلت إلى حافة الجنون، أكملت صراخي والدموع تنهمر من عيناي:

ـ مخادع.. أنت مخادع.. تخدعني لكي لا أكمل مهمتي..

وفي تلك اللحظة، ولوهلة، ظننت أنني رأيت طيف «خضر» يمر من أمام المشهد، يتحرك وكأنه يبتسم لي ويشجعني على أن أفعلها..!!، هل أنا أتخيل..!!، إذن لماذا أرى أبي وكأنه رأى ما رأيته.. وكأنه رأى خضر معي.. لماذا هذا الهلع في وجهه، ولماذا عيناه أصبحا يملأهما الذعر..!!

كان المسدس يرتعش في يدي، وأصبعي يضغط على الزناد ببطء شديد، ولم أعِ ما حدث، حتى انطلقت الرصاصة..

ـ لاتفعلها أرجـــــــــوك..!!

«بووووووم»..

وعندما نظرت، وجدت هدى تقف مع جمال.. وعيناها تملأها الدموع.. صرخت بي لكي لا أفعل، لكن الوقت كان قد تأخر..!!

****

«لا لا لا لا !!!!!»..

صرخت بها بشدة، صرخت بها حتى ارتجت السماوات، وانحسرت المحيطات، وشق القمر، صرخت بها حتى بلغ الألم مبتغاه، صرخت بها والدموع في عيناي تتحول إلى دماء، ما الذي فعلته، ما الذي اقترفته يداي..

كان أحمد يبتسم لي في صدق، في هدوء وسكينة..

قال لي ببطء:

- «لا تقلق يا حمزة.. لا تبكِ أرجوك.. صدقني نحن في صف واحد»..!!

في كل كلمة يقولها، كانت دماء جديدة تتدفق من الثقب الموجود في صدره، في لحظة إنطلاق الرصاصة، قفز لكي يتلقاها بجسده، تلقى الرصاصة بدلاً عن الأب، ثم سقط أرضاً..

صرخت، هرعت إليه بكلِّ سرعة، ضممته حاولت أن أستحثه على النهوض، قلت له:

- «أرجوك.. انهض.. سننقذك.. أرجوك.. لا تستسلم.. لا تمت»..

كنت أحتضنه بكلتا ذراعي، وكان يجلس بجانبي جمال وهدى وهما ينظران إليه بأسى، وعيونهم تجري أنهارًا.

ابتسم أحمد لنا بصعوبة، ثم أكمل حديثه لي بكلمات بطيئة:

ـ «ألم يقلها الخضر.. نحن إخوة.. لا فائدة يا حمزة.. هذا قدرنا.. المهم أن لا يمضي موتي هدرًا.. أرجوك يا حمزة.. اسمعني مرة واحدة من عقلك»..

ثم تحامل على نفسه بصعوبة قبل أن يقول:

ـ «معركتنا واحدة.. وهدفنا واحد»..

وكانت هذه جملته الأخيرة..!!

ظللت أراقبه بعيون دامعة وهو يرقد بسلام.. ثم ألتفتُ حولي.. فوجدت الأب ينظر إلينا من بعيد.. ينظر إلينا ونحن نعاني.. ونحن نتألم.. ونحن نموت.. ينظر إلينا دون أن يفعل شيئًا.. ثم إنه غادر دون أن ينبس ببنت شفة..!!

****

بعد دقيقتين فقط..

سمعنا صوت الانفجار الرهيب..

****

الفصل الخامس عشر

انفجار

يرويه: هاني

ـ «الله أكبر.. الله أكبر.. لقد تمّ تجييف الطاغوت»..

الفصل السادس عشر

الخاتمة

ترويه: سارة

(قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ.. سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا)

سورة الكهف: 78

وهكذا رحل الخضر..

رحل عنّي دون أن يودّعني، أو ربّما ودّعني دون أن أنتبه، رحل عنّي بعد أن أصبحت ما لم أكن عليه، رحل فأخذ قطعة مني، وتركني أكمل وحدي في هذا الزمن القاسي.. هذا الزمن البؤس.. هذا الزمن المؤلم بعد رحيله، رحل ليتركني أقاوم وحدي.. وأكمل ما بدأناه معًا، رحل بعد أن انتهى من مهمته، رحل بعد أن نفّذ سبب ظهوره ومقصد وجوده!!

هل حزنت لأنه تركني..؟!

لا.. لست حزينة، منذ أن حكى لي قصته، وأنا أعلم أنه ليس لي، هذا الحب المقدس، وهذا الجمال الرمزي، لم يخلق لأستأثر به، لم يخلق لكي يستأثر به أحد، لقد جاء لغاية أسمى، لغاية أعظم، لقد جاء ليعطينا درسًا عبر الأزمنة، لقد جاء ليشّع الكون بنوره، كم أنا محظوظة لأنني كنت جزءًا من القصة، كم أنا محظوظة لأنني كنت شخصية في روايته، لأنه أحبني، مال لي، ولو لبضع لحظات، ولو لبضع فصول، ولو لبضع أزمنة، كم أنا محظوظة لأنني شاركت.

حزن.. لا.. ليس حزنًا، بل فرحًا مؤلم، غصّة لأنني بشر لم أملك القدرة على الرحيل معك أيها الملاك، وخزة في القلب لأننا من عالمين مختلفين، ومع ذلك فقد التقينا، وجلسنا معًا وشربنا الشاي، وتبادلنا الحديث، بل وأحببنا بعض..

نعم، أعلم أنه لم يكن قلبك لي، ورغم ذلك أحببتني لبضع الوقت،

وأنت في طريقك للقاء حبيبتك، وأنت في طريقك للانتقام لها، فلا يمكن لومك ولا يمكن لومي، لأننا لم نحدث، لأننا لم نوجد، ففي زمنين مختلفين حبّنا حدث ولكنه لم يحدث، لأنه جاء بعد أن توقفت الساعة على الدوران، بعد أن جفّ نهر الزمن، فلم تنعكس صورتي على المرآة، وذاب شبحك الصورة، واخترق الرحيل.

نعم.. أنت قد رحلت، وأنا تقبّلت الأمر، بكل جماله، بكل قسوته، بكل ألمه، نهضت صباحًا وتقبلته، فهل صدّقت قصتك، هل صدقت فعلًا ما قلته لي، لست أدري بعد، ما قلته لي غير قابل للتصديق، ما قلته لي لا يستطيع قبوله أي عقل، ومع ذلك، فأنا آمنت بك، آمنت بك لأنني أحببتك، آمنت بك لأنني استمعت لكل كلمة قلتها لي بقلبي، رغم أنني ما زلت أذكر كلماتك عندما تقول لي، لا تؤمني بشيء إلا بعقلك، لا تصدّقي أي شيء على أساس العاطفة، وانتظري.. انتظري البرهان حتى يأتي.. ثم قرري إن كنت ستصدقي أم لا..

«أنا لست شيئًا مقدسًا».. تقولها لي وتمضي.. «أنا جئت بسبب، ولسبب، أنا هو نتيجة، أنا لا شيء سحري حولي، أنا قابل للتفسير، قابل للتحليل، أنا صورة واضحة عندما تكشف الحقائق، أنا قصة منطقية عندما يُفهم كل شيء»..

في ذلك اليوم، عندما انتهت المطاردة، طلبت منك تفسيرًا، أخبرتك لأول مرة: من أنت حقًا، وعندها جلست وحكيت لي كل شيء، لماذا أنا الوحيدة التي نالت سرّك وحقيقتك، هل لأنك أحببتني، أم لأني

استحققت الحقيقة عن جدارة، لست أدري، فقط بدأت أستمع لكل حرف يومها قلته..

«سافرت من أجلها عبر كل الأزمنة، زمن الحرب العالمية الثانية والأولى، زمن انهيار الجبال والزلازل، زمن تكوّن الإمبراطوريات وتشكّل العوالم، زمن المجيء وزمن الرحيل وزمن الولادة، حاولت أن أنقذها بكل ما أملك من جهد، برغم ما أجر له من ألم، كنت في كل وقت ذلك الغريب عن المشهد، الشاذ في كينونته، المتفرّد في تكوينه، شاهدت تكوّن وتشكل كل شيء، دون أن أتدخل، شاهدت تكوّن مملكة الإنسان الأولى، فرحة الكتابة، نشوة النطق، أول تطوّر، وأول تسامي، وأول خلق، شاهدت كيف تشكّلت الطبقات البركانية، وكيف تصحرت الغابات، وكيف ذاب الجليد، قفزت ومضيت ورحلت، تجسدت في كل شكل، وفي كل لون، وفي كل طائفة، وفي كل دين، نثرت كلمات الحكمة لمن أرادها، وأظهرت المعرفة لمن أحتاجها، لكنّي لم أكن مسؤولًا عن حماقات الآخرين، لست مسؤولًا عمن أغويته فاغتوى، ومن شيطنته فتشيطن، لست مسؤولًا عمن رسبوا في امتحان الإنسانية، وحرّفوا الكلم ووضعوه رأسًا على عقب، لست مسؤولًا عن المهاويس والمجانين وطلاب السلطة والمختلين عقليًا.

بعد أن ماتت، ظللت عشر سنوات في حالة موات واكتئاب، فكرت كثيرًا في الإنتحار، لكنني لم أستطع ببساطة، ظللت أعاني مرارات الفقد والحسرة والغضب والخسارة كثيرًا، كان أكثر مما

أحتمل، حتى رأيت ذلك الإعلان، يومها نهضت صباحًا على عالم لا يعني لي الكثير، فوجدت إعلان بين يدي يقول: «نبحث عن متطوعين لأداء تجارب علمية دون أي ضمانات»، كانت تلك هي الفترة التي أكتشف فيها شخصًا يدعى أحمد سرّ الزمن، وحل المعادلة التي ستقلب كل شيء، وحسب ما قيل لي في ذلك الوقت، فإن الموضوع ظل طي الكتمان، وتم تكليف فريق متخصص ومحدود بوضع ما توصّل إليه أحمد من إكتشاف على مسار التطبيق العملي، وبعد سنوات من العمل الجاد والتكتم الشديد، جاء وقت بدء التجارب العملية، وكانوا بحاجة لمتطوعين..

منذ اختياري الرسمي من ضمن مجموعة من المتطوعين القلة اللذين أختاروا خوض غمار هذه التجربة غير المعلومة النهاية، كنت أعد نفسي للقرار الذي لم يعلم عنه أحد، «تصحيح الأمور»، الذهاب للماضي لتغيير الفاجعة، إسترجاع ما فقدته، السفر ثم العودة، لأجدها ما زالت بجانبي، ما زالت معي، بضحكتها، بشورتها القصير، بعيونها، بلكنتها المميزة، معي، لنكمل ما بدأناه، وما حلمنا به، أنسى ذلك الزمن الذي ماتت فيه، نلغيه، ونرسم نهاية أقل وجعًا، فالوجع لم يخلق لها.

قراري كان يعني مخالفة كل الأوامر التي منحت لي، كان يعني الخروج عن مشيئة الأرباب، كان يعني أن تتحول الرحلة القصيرة التي كان من المفترض أن تكون لدقائق لرحلة طويلة عبر الزمن لا أعود فيها إلا بعد أن يتحقق ما ذهبت لأجله، ولذلك فإن أول ما

قمت به هو تغيير مسار الزمن بذلك الجهاز الذي ظللت سنة كاملة أتدرب على استعماله منفصلًا تمامًا عن التجربة، لأدخل تجربتي الخاصة مبحرًا في نهر الزمن الخاص بي.

في البداية حاولت أن أنهي سبب المشكلة، القنبلة النووية التي ألقتها أمريكا على اليابان في الحرب العالمية الثانية، هذه القنبلة التي كانت سببًا في العديد من التشوهات الجينية التي كانت ستظهر فيما بعد، أحدها هو ذلك الخلل الجيني الذي إنتقل من جدّيها عندما كانا في اليابان ساعة وقوع القنبلة، لينتقل لها ويسبب وفاتها، حاولت إثناء إينشتاين عن إرسال الرسالة للرئيس روزفلت، تلك الرسالة التي ستكون نقطة إنطلاق حقيقية لمشروع مانهاتن التي ستخرج منه القنبلة، كانت الحرب قد انتهت ساعة صناعتها، ولكن ما تم صناعته لابد أن تتم تجربته، كان لابد لي من إيقاف هذه الكارثة، لكن بدون أن يكون لدي أي تدخل شخصي، كانت هذه هي قوانين السفر عبر الزمن، الأفعال لا بد أن تصنع من الإرادة الحرة لمؤسسيها، حاولت وحاولت، ولكني في النهاية فشلت وتمّ التفجير.

قررت القيام بخطوة أبعد، بتاريخ أقدم، حاولت منع قيام الحرب العالمية الثانية، منع قيام الحرب العالمية الأولى، انهيار الاتحاد السوفييتي، ظهور الإمبراطورية الرومانية، رحلة كولومبس، انتصار ماو تسي تونغ، الهجرة البشرية الأولى، لكني كنت في كل مرة أفشل، في كل مرة أخفق، كانت الأحداث دائمًا ما تجد طريقة لمعالجة نفسها والعودة إلى السياق، كنت مشتت وأكاد أجن، وكان لدي مخطوطة

بكل المسارات التاريخية التي قمت بها، ومئات الأوراق بالأخطاء التاريخية التي أكتشفتها عند مروري بها، وكلّما توغلت في القدم، كلما اكتشفت الوهم، تاريخ مزوّر يكتب ويمحى ويعاد فيكتب، شعوب كثيرة وحيوات كاملة مبنية على أكاذيب، وبتُّ حقًا لا أعلم إن كان باستطاعة أي إنسان المرور بكل ما رأيته، والبقاء بكامل عقله وإدراكه، أما أنا فقد كنت قد وصلت إلى حافة الحكمة- المعرفة، وإن كان لابدّ.. الجنون».

****

نظر لي خضر، نظرة حزينة أراها لأول مرة، تنهد، ثم قال لي كاشفًا عن سره الذي طال:

ـ اسمي الحقيقي هو إلياس، أحببت فتاة تدعى «ميدوري أكينا»، وكانت جميلة كالقمر، كنت لها إيزانجي وكانت لي إيزانمي، وكانت قصتنا كالأسطورة، لكنها سرقت منّي، قتلها الجشع والطمع والتسلط، ماتت لأنها تحمل خللا جينيا منعها من أن تقاوم ورمًا خبيثًا، ماتت وأنا سافرت لأجلها عبر الزمن، وحينما لم أستطع استعادتها، لم يعد بإمكاني إلا أن أقوم بزيارة أخيرة، تلك القفزة الأخيرة، ذلك القرار الأخير، الذي ظللت أؤجله وأهرب منه إلى أن وجدته أمامي، أن أنهي حياة من كان السبب.

****

قمت بسحب نفس عميق من سيجارتي، ثم نفثت دخانها بعيدًا في

الهواء، جالسة مع الخضر في ذلك اليوم، ليروي لي تفاصيل قصته، في اعترافاتها الأخيرة:

سألته في حيرة:

ـ ولكن لماذا حمزة؟! لماذا اخترت حمزة أولًا..؟!

قال ببساطة:

ـ الانتقام، ولا شيء سوى الانتقام، أردته أن يعرف ما معنى أن تفقد طفلك في لحظة ما، أن يجرب شعور الألم الناتج عن ذلك، ما زلت أذكر لحظة أن أخبرت أب (يزيد) بوفاة ابنه، ما زلت أذكر كيف سقط جسده في لحظة ثم سقطت دموعه دون صوت، عينا (زينب) وهي تبتسم في فراش الموت قبل أن تغمضها للمرة الأخيرة، لمسة (حسن) لأمه وهو يحتضر، ويقول لها، ماما.. خليني معاك.. أنا خايف..

لم يكن الأمر يحتاج مني إلى أي ذكاء أو قوى أسطورية، حياته، وحياة أولاده الثلاثة كانت بالنسبة لي فيلمًا معادًا، دخلته عشرات المرات، فما كان مني إلا أنني انتظرت اللحظة المناسبة، لحظة قتل (حمزة) لأب حبيبته (هدى)، في السيناريو المعتاد، لم يكن ذلك ليحدث أي فارق في حياة حمزة، كان سيحزن لأيام، ويلوم نفسه لأشهر، ثم سيتكفّل نفوذ أبيه بتسوية الجريمة وطيّها، هو كان سيخسر حبيبته نتيجة لذلك، لكنه كان سينسى وسيرى غيرها سريعًا، وستشفيه المضاجعة والأيام.

لكنّي أوهمته بالعكس، في تلك اللحظة التي تدخّلت فيها، إختل توازن العالم، تبعثرت الأحداث كقطع نرد، فجأة أحس بالصدمة، وكنت يد القدر التي رجّت كيانه، وجد نفسه يتبعني دون إرادة، وهناك في الأردن، لوحدنا، أصبح التلاعب به في منتهى السهولة.

«العالم يحتاجك» كانت هذه هي العبارة الكافية لأي شخص لكي يبتلع الطعم، «أنت هو المخلّص»، نحن نعتمد عليك، بدونك لن يتحقق الحلم، وستقف الكرة الأرضية عن الدوران، إنها خدعة الجدوى، أن يعتقد كل إنسان في الحياة أن له هدف ما، وأنه خلق من أجل أن يغيّر، أن يحدث الفارق، إنه الجوع الفطري لمشاعر البطولة.

وطوال فترة بقائي معه، ملأت عقله بكل أنواع الحديث عن ضرورة تحطيم كل مظاهر الظلم والطبقية والاحتكار والجبروت، صعدت معه إلى أحد الجبال هناك، عرّضته لكل أنواع الجوع والتقشف والإنهاك الجسدي، وكنت بشكل أساسي أقوده لفكرة أن يذهب ليدمّر أمبراطورية أبيه، أن يتخلّص منه، أن ينتهي الأب بيد الابن، فتكون النهاية أشد إيلامًا، ثم بعدها رحلت.

ـ إذن ماذا عن هرمجدون؟!!

ـ لا أدري حقيقة ما أصابه، ربما كان لديه مرض نفسي لم يتم اكتشافه، ربما حالة متقدمة من الشيزوفرينيا أو نوع من أنواع الصرع، أو ربّما ضغطت عليه بشكل مبالغ به، فتكونت لديه كل هذه الهلوسات والخيالات، فجأة، ادّعى أنه يسمع أصواتًا تخاطبه من فوق الجبل، ثم كتب كتابًا أسماه «كلينامن»، ونزل ليصنع هذه المنظمة التي تدعى

«هرمجدون»، أما أنا فليست لي أي صلة بهذا، كنت وقتها أعالج شيئًا آخر توقعته وحدث فعلًا، وعندما جئت، ووجدت كل هذا، حاولت إصلاح الوضع، وإرجاعه إلى مساره قدر المستطاع.

ـ كنت تتوقع فشل المسار الأول، لذا كنت تعمل على مسار آخر لضمان نجاح هدفك..!

ـ بالضبط، فأنا لن أجازف بوضع كل آمالي على ما سيفعله حمزة، خاصة وأن مشاعره الثورية المتخبطة لم تكن مضمونة النتائج، بينما أكتشفت أنه يمكنني الاعتماد على شيء أكثر ضمانة وهو المشاعر الدينية، ولذا كان علي تحريك خيوط مارونيت الدمية الثانية، واللعب على مسرح الحارة، الأمر لم يكن صعبًا رغم تعقيد الأحداث، متى امتلكت أدواتك !!، قلّبي بضع صفحات في كتب أسس علم الاجتماع وعلم النفس، وستبدئين لوحدك في حل خيوط هذا التعقيد، فما بالك بشخص عاش هذا التعقيد بنفسه في العديد من المناسبات، التاريخ يكرر نفسه بشكل ساذج، والإنسان بكل تعقيداته يظل هو ذاته الإنسان.

سألته كأني أريد تأكيد حقيقة ما:

ـ هل أنت من قتلت (مصطفى)، لتدفع بهاني في هذا الإتجاه..؟!

نظر لي خضر نظرة قاسية قبل أن يقول دون استعجال أو خفة في الكلام:

ـ أنت ما زلتِ لم تفهمني معنى ما أقول؟!، ما زلت تسألين أسئلة

سطحية عن من قتل من؟!، ومن انقلب على من؟!، ليس مهمًا من قتل مصطفى، أنا أو الغول أو أبي الفيحاء؟!، مصطفى كان سيموت، وهاني كان سينحاز لأحد الطرفين لا محالة، حالة الاستقطاب التي خلقتها في الحارة لم يكن أحد يستطيع الفرار منها أو الحياد عنها، هذا الثقب الأسود كان يبتلع الجميع، وسواء إنحاز هاني إلى أهل اليمين أو أهل اليسار، فأنا سأكون واقفًا في نهاية الطريق بانتظاره.

كنت في حالة صدمة وإندهاش شديد من كمّ كل تلك المعلومات التي تعرض أمامي، أخذت نفس عميق، وبضع لحظات للتنفس واستيعاب كل ما قيل وكل ما يدور في رأسي، ثم إني ألقيت له السؤال الأكثر جدية في نظري:

ـ وماذا عن أحمد؟!

صمت للحظات، تنهد بشكل عميق، قم قال بصوت ينبئ بالوصول لذروة القصة:

ـ أحمد هنا هو شخصية شكلت نقطة تحوّل فاصلة غير متوقعة حتى بالنسبة لي، تلك اللحظة الصادمة التي تجمدت فيها وأنا أكتشف أن من أوصلني إلى هنا هو نفسه ابن من أسعى للانتقام منه، مصادفة لم أكتشفها إلا وأنا أرى تدفق الزمن الذي صاغ أحمد معادلته، الخير الذي خرج من صلب الشر، بروميثيوس الذي سرق نار المعرفة من قلب آلهة الأولمب ليعطيها إلى البشر!، إنها أشبه بأسطورة إغريقية تكتمل أركانها بمشاركة كل أبناء الأب في ملحمة إنهائه، والتخلص من شروره، كما خططت وكما تمنيت..!!

ـ لكن..؟!

ـ لم تكن الخطة الأصلية تحتوي على أحمد على الإطلاق، الخطة كانت هي التلاعب بحمزة كخيار أول، وهاني كخيار بديل للتخلص من أبيهم، بينما يمضي أحمد في مساره الزمني المعتاد لاختراع آلة الزمن للعودة بها، كان من المفترض حسب خطة الزمن التي رأيتها عشرات المرات هو زواجه بشذى واستكمال المشروع بكل بساطة، لكن ما حدث أصابني بالإرباك والجزع، في موقف غير منطقي تخلت عنه شذى بكل بساطة، وبطريقة لا تعبّر عن شخصيتها المتوقعة، رغم أنها في أحداث الزمن المعتاد، تشبثت به وأصرت وحاربت من أجله إلى أن تمّ الزواج !!

ـ ماذا تقصد..؟!، هل تقصد أن..

أجاب بجدية:

ـ نعم، هناك شخص ما، أو شيء ما لا يريدني العودة، هناك من يتلاعب بالأحداث وربّما هو من أقنع شذى بأن تبتعد عن أحمد، وضغط عليها بشكل ما، لا أعرف هل السبب هو تلاعبي بالأحداث، هل بسبب هدفي نفسه، هل السبب شخصي؟!، مهما يكن السبب وممّن؟!، فقد نجح فعلًا في تغيير مسار الأحداث، لقد توقف مشروع الزمن، ودخل أحمد في يأس واكتئاب حاد بسبب صدمة موقف شذى، وكان عليّ إصلاح الموقف قبل أن يضيع كل شيء..

قلت في فهم، وقد بدأت الصورة تتضح بشكل كامل:

ـ ولهذا أرسلت «رانيا» لتجعله يقع في حبّها، لاستبدالها بشذى وإكمال مسيرة مشروع الزمن بشكل معتاد؟!

ـ بالضبط.

سكتت للحظات، ثمّ كأني فهمي للجملة الأخيرة أعادني لمرحلة اللا فهم مرّة أخرى فقلت متمتمة للفراغ:

ـ ولكن لماذا اخترت رانيا بالذات لتنفيذ هذه المهمة، كان يمكنك اختيار أي فتاة أخرى، إلا إذا.. إلا إذا..

نظرت له فوجدته يبتسم، ثم كأنني بدأت أفهم جواب سؤالي، اتسعت عيناي من المفاجأة، تابعت:

ـ إلا إذا كنت تعرف أباها الصوفيّ التائه، أو التقيت به، أو أنك...

صمت، سكت الحديث بيننا، وأنا أرى إجهادًا واضحًا جراء ما باح وأستخرج من دواخله، كنت أحس أن في داخله شيئًا لم يستخرجه بعد، ولم يحدثه لي، لقد ارتوى فضولي ولكن لم يرتوِ، كانت الأسئلة لم تنتهِ، كنت أود سؤاله عن من الذي كان يلاحقنا، عن ماهية الشخصين المسؤولين عن مطاردتنا، وربّما المسؤولان أيضًا عن تغيير مسار الأحداث، كان في جعبتي الكثير من الأسئلة الأخرى المهمة، والتي لم تحل بالنسبة لي، لكني لحظتها قلت في نفسي سأدعها الآن، لأريحه قليلًا من الأجوبة، ولربّما سيجاوبني عليها المرة القادمة، لكني لم أعلم أن لا مرة قادمة، وأن هذا هو آخر لقاء بيننا،

وأن آخر شيء قاله هو لا شيء، وأنه اكتفى بمجرّد ابتسامة منهكة. ثم إنه رحل.

****

هل ودّعني الخضر قبل أن يرحل، لست أدري، ولست متأكدة من شيء، إذن لماذا حينما نهضت من فراشي فجأة في تلك الليلة التي سبقت رحيله، أحسست بأن خدّي دافئ، وكأن أحدهم قد أعطاني قبل لحظات قبلة الوداع، ربّما كانت أوهاما.

أنهض صباحًا، ألبس حذائي الرياضي، وملابسي السبورت، لأقوم بجولة في مدينتي على الأقدام، الآن أصبح من الواضح أن الإرهاب قد بدأ يتمكّن من مفاصل المدينة رويدًا رويدًا، بعد موت الأب، وموت الابن الأوسط أحمد، وأختفاء الابن الأصغر حمزة، لم يبقَ إلا الابن الأكبر هاني، الذي تولّى مقاليد الشركة، بإعتباره الابن الأكبر والوحيد، وأستولى على عرش الأب، وجلس عليه، وأصبح هو الآمر الناهي المتعالي، زواج رأس المال مع التطرّف أمر كارثي، وحينما تموّل الأفكار المتطرفة جيدًا، يصبح التلاعب بالعقول أمرًا هينًا، وتصبح هذه الأفكار هي أفكار مجتمع بأكمله، إننا مقبلون على كارثة حقًا.

أتسائل، لماذا سمح الخضر بهذا، هل كان حقًا أنانيًا، هل جاء حقًا لينفذ مهمته، ليسترجع حبيبته وينتقم ثم فليذهب الجميع إلى الجحيم، هل هو يمثل حالة من التناص لتكرار مأساة النخبة التي

تخلت عن دورها وباعتنا من أجل نفسها لتتركنا في الحضيض، أم أن الخضر يفكر بطريقة أخرى، هل أراد لنا هذا المصير لكي نذوق عذابات التطرف بأنفسنا، لكي يستيقظ البعض من الوهم الذي يسمونه الجنة الأرضية، والتي تعد به الجماعات المتشددة.

هل كان يقول لابدّ لكم من هذه التجربة الأليمة، لتخرجوا من هذا المخاض العسير لعصر الحداثة، وإن كان لا يهمه الأمر في شيء، فلماذا دعمني إذن، لماذا دعم مشروع أنا امرأة حرة، ولماذا دعم مشروع التنوير؟!، هل يمكن أن يكون هو ذلك السبب، هل هذا ممكن حقًا، أحبّني، أحبّني ولو لبرهة من الوقت، ولو لزمن لا يعدّه زمنه، ترك لي مكانًا في قلبه، رغم إخلاصه لحبيبته، تركت في قلبه لمسة من زمني، يرحل بها، يتذكرها، من وأين يرحل.

إتصلت برانيا، لأعلمها عن آخر التطورات، مسكينة رانيا، ما زالت لم تفق من صدمتها بعد، أن تخسر حبيبين في حياة واحدة، مصطفى بالأمس، واليوم أحمد، قالت لي في ذلك اليوم، «هل تعلمين يا سارة؟!، أحيانًا في لحظات ضعف، وحينما يتملّكني الحزن والفقدان، أتمنى في داخلي أن يعود أبي، أبي الحقيقي، أن يعود من سفره الطويل، أن يحتضنني ليخفف عنّي ذلك الألم، لكنّي أعلم أنه لن يعود».

في ذلك اليوم، ذهبنا أنا وهي إلى أم أحمد لتعزيتها، يقال أنه في اللحظة التي تلقّت موت ابنها ابتسمت، وكأنها كانت تعرف أن ابنها سيمضي إلى ذلك المصير من البداية، «سلّموا على أمي»، غريبة هي

تلك العلاقة بينه وبين أمه، غريب هو ذلك الارتباط بالأم في زمن تسلط الأب، المهمة لم تكن سهلة، وتمالكت حقًا نفسي، وأنا أرى حزن الأم.

في طريق العودة حدثتني رانيا على خطتها للسفر.

«للأسف يا سارة، لا يمكنني البقاء هنا أطول من هذا، أخي الآن هو الحاكم الناهي، وهو يبحث عنّي بشكل محموم، لا يمكنني الاختباء أكثر، لابدّ من الرحيل، قلبي معكم يا سارة، سأحاول دعمكم بكل ما أستطيع من الخارج، الغربة قاسية.. صحيح، لكننا مضطرون إليها أحيانًا لنحافظ على آدميتنا، على احترامنا لإنسانيتنا، ردوا بالكم على روحكم».

«رد بالك على روحك يا رانيا»..

كنت في حالة بكاء شديدة بدون صوت، فقط الدموع تنهمر منّي وأنا أرى رانيا تبتعد..

«سارة.. قبل أن أمضي، هناك سر سأقوله لك، ولكن أرجوا أن يظل بيننا، أنا لا أعلم ما الذي سيحدث لي، ربما تحتاجين لمعرفته».

ـ وما هو هذا السر..؟!

ـ أنا أعرف مكان حمزة..

ـ حقًا..؟!

قالت رانيا بجدية:

ـ نعم.

سألتها في لهفة:

ـ أين هو..؟!

أجابت:

ـ في البداية وجدت صعوبة في التعرف عليه، لكنني تبعته، كان هو بكلّ تأكيد، لم أدرَ حقًا ما الذي دفعني لزيارة الحارة مرّة أخرى، ربما هو ذلك الحنين للعودة إلى ذكرياتي الأولى، إلى رؤية منزلي القديم قبل الرحيل، وعندما رأيته، لم يكن يرتدي ملابس غالية أو أسمال بالية، كان يرتدي ملابس عادية بسيطة، ونظارة نظر، وعندما تبعته وجدته قد دخل لذلك المركز.

استجمعت نفسها وقالت:

ـ نعم.. حمزة يقوم بالتدريس في مركز لتعليم الأطفال المعوزين والذين لم يلتحقوا بالمدرسة، ينوّرهم بالعلم والمعرفة، حمزة مختبئ في الحارة، يسكن في بيت بسيط بها، ويعيش حياة سكانها البسطاء.

رغم ذهولي، ورغم دموعي التي كانت تسكب ابتسمت، شددت مرّة أخرى على يد رانيا، ثم قلت لها بامتنان، «شكرًا لك».

ثم رأيتها تبتعد..

في تلك اللحظة، رفعت سماعة الهاتف، لأتصل بإحدى الرفيقات، واطمأن على تجهيزات يوم الغد:

ـ هل تم تجهيز كل شيء.. جميل.. اللافتات جاهزة، نعم، ممتاز، هل تم التنسيق مع الأخريات، الماء، هل جلبتم ماء، جميل، غدًا موعدنا إذن، موفقين..

****

في صبيحة اليوم التالي، كانت المدينة تصحو على أكبر مظاهرة نسائية شهدتها..

كبار السن فقط، عندما رأوا المظاهرة تهزّ الشوارع، هم من بدأوا يتذكرون مظاهرات الستينيات النسائية التي كانت تطالب بالحقوق، وإن أقسموا أن ما يرونه الآن ليس له مثيل، كانت المظاهرة كلّما اقتربت من مركز المدينة كلّما ازدادت ضخامة، وكلما مرّت بشارع رئيسي، كانت الفتيات تخرج من الشوارع الفرعية كغذاء يصل لنبات من شرايين الأرض، كان المشهد مهولًا، وكانت أبواب البيوت تفتح لتعلن الشابات عن تمردهم وخروجهم للانضمام للمظاهرة، مقاومة من جنّ جنونهم لم تكن تجدي، كان الحماس والدفق هادرًا، وكنت أنا في مقدّمتها، أرى حلمي يتحقق، بداية حلمي أقصد في إعلان تحررنا وتمردنا على التخلف والماضوية.

كان مركز المدينة يبدو واضحًا وجليًا أمام أبصارنا، وعلى بعد أمتار، ورغم كل ما وضع من حواجز لمنعنا من التقدّم، لكننا كنا نرى الطريق مفتوحًا أمامنا.

ومن وسط حشد الجماهير التي كانت تشاهدنا على جانبي الشارع،

لاح لي جمال، الذي خرج من بينهم متقدمًا، حتى وصل إليّ، عندها قال لي مبتسمًا:

ـ هل تسمحون لي بالانضمام إلى المشروع.

ـ النهاية ـ

الخِضر

وتحكي القصة الأسطورية، كما يرويها جاكوبو دي فيرجين في كتابه " قراءات القديسيين " عن قدوم القديس "جورج" إلى مدينة "سيلين" ، حيث وصل إلى هناك ليجد هناك تنينا تقدم له القرابين البشرية من أبناء المدينة كل سنة، ليتقو شره، وفي تلك السنة وقعت القرعة على إبنة الملك لتقدم قرباناً إلى التنين ليأكلها، حاول الملك التملُص لإنقاذ إبنته، لكن الشعب رفض تغيير القرعة لأنهم أيضاً فقدوا أولادهم وأحبائهم، وعندما سمع القديس جورج بالقصة، أقترح أن يصارع التنين وسط دهشة الجميع، دخل القديس جورج في معركة مع التنين، وقتله بالفعل، وأنشرت القصة وأصبح منذ ذلك اليوم رمزاً دينيا وثقافياً كبيراً جداً لدى المسيحيين، وقد سميت آلاف الكنائس بإسمه.

تصميم الغلاف كريم آدم

ISBN 978-977-770-070-2
9 789777 700702
المصري للنشر والتوزيع